النكات البلاغية في
آيات مراحل خلق الإنسان
دراسة تحليلية

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (2015/8/3971)

جادو ، طه محمد

النكات البلاغية في آيات مراحل خلق الإنسان / طه محمد جادو:-
عمان:- دار غيداء للنشر والتوزيع، ٢٠١٥
( ) ص
ر.إ: (2015/8/3971).
الواصفات:/ البلاغة //القرآن الكريم //الإنسان /

❖ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

Copyright ®
All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-9957-96-145-9

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي وجه أو بأي طريقة إلكترونية كانت أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل و خلاف ذلك إلا بموافقة على هذا كتابة مقدماً.

دار غيداء للنشر والتوزيع

تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله
مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
تلفاكس : 5353402 6 962+
خلـــوي : 95667143 7 962+
ص.ب : 520946 عمان 11152 الأردن
E-mail: darghidaa@gmail.com

النكات البلاغية في آيات مراحل خلق الإنسان

دراسة تحليلية

تأليف

د/ طه محمد عبد الفتاح جادو

مدرس اللغة العربية وبلاغتها بكلية الإلهيات

جامعة يوزونجويل- تركيا

الطبعة الأولى

2016 م – 1437 هـ

الفهرس

مقدمة 9

الآيات 15

علاقة الآيات بمقصود السورة 16

المبحث الأول

التحليل البلاغي لآية الحج

جملة الشرط وإيثار (إن) ودلالتها البلاغية في الآية 25

حرف الظرفية (في) ودلالته البلاغية..... 27

الفرق بين الشك والريب، والنكتة في إيثار الريب دون الشك في الآية 27

تنكير كلمة الريب..... 29

العلة في إيثار الاسم دون الفعل 30

نوع (من) في الآية ودلالتها البلاغية 30

مادة بعث ودلالتها البلاغية..... 31

التوكيد وأثره البلاغي في سياق الآية..... 32

النكتة البلاغية في إيثار الفعل الماضي 32

المرحلة الأولى من مراحل تخلق الجنين والأسرار البلاغية فيها 34

السر البلاغي في التعبير بلفظي التراب والطين في مراحل التخلق..... 35

النكتة في إيثار مادة التراب في الآية 36

القول في المخلوق من تراب، هل هو آدم أم الذرية؟ 37
الدلالة البلاغية لحرف المهلة (ثم) في الآية 39
المرحلة الثانية(النطفة) والنكتة البلاغية في التعبير بها 40
الفرق بين ذكر النطفة مفردة وموصوفة بالأمشاج 42
المرحلة الثالثة:(العلقة) ومدلولها البلاغي 45
الفروق البلاغية بين الإفراد والجمع في كلمتي (علقة) و(علق) 47
المرحلة الرابعة: (المضغة) ودلالتها البلاغية 49
السر البلاغي في حذف المفعول 54
السر البلاغي في ذكر(ما نشاء) دون (من نشاء) 55
الأسرار البلاغية في مراحل ما بعد التخلق 57
النكات البلاغية في آخر مرحلة لعمر الإنسان..... 59
الفروق البلاغية بين(من بعد علم) وبين (بعد علم)..... 62
الاستعارة وأثرها البلاغي في قوله تعالى: (وترى الأرض هامدة)..... 64

المبحث الثاني

التحليل البلاغي لآيات سورة المؤمنون

افتتاح الآية بالأسلوب الخبري 67
النكتة البلاغية في الوصل..... 67
النكتة في التعبير بالخلق دون ما يرادفها من أفعال 68

النكتة في التعبير بالسلالة 69
السر البلاغي في إيثار حرف التراخي (ثم) 70
النكتة في وصف(قرار)بـ (مكين)..... 71
النكتة في تكرار مراحل التخلق في آيات (سورة المؤمنون) 73
السر البلاغي في تنوع حروف العطف بين مراحل التخلق. 74
النكتة البلاغية في مرحلة كساء العظام باللحم..... 77
السر البلاغي في مجيء الاستعارة في (كسونا) 77
النكات البلاغية في قوله: (ثم أنشأناه خلقا آخر)..... 78
الأسرار البلاغية في تذييل الآيات. 78

المبحث الثالث

التحليل البلاغي لآية غافر.

النكتة البلاغية في كثرة لامات التعليل في الآية..... 87
الخاتمة 89
فهرس المصادر والمراجع..... 91

مقدمة

الحمد لله، خلق الإنسان، وعلمه البيان، والصلاة والسلام على خير الأنام، أفصح من نطق بالضاد، وعلى آله وأصحابه الأخيار، وعلى من تبعهم بإحسان.

وبعد

فإن القرآن الكريم يشتمل على أسرار بلاغية جمة، ويحاول هذا البحث أن يقف على النكات البلاغية التي وردت في آيات مراحل تخلق الجنين في بطن أمه، وهي آيات كثيرة من القرآن في سوره المكية : (الحج – المؤمنون – غافر – القيامة – الطارق- العلق)، ووردت بشكل مفصل في سورتي(الحج، والمؤمنون)، وقد اكتفيت بذكر هاتين السورتين كأنموذج لسببين: أولا: فرارا من التكرار الذي هو آفة البحث العلمي .

ثانيا: لأننا وجدنا أن هذه الآيات اشتملت على كل مراحل تخلق الجنين في بطن أمه، وجمعت معها أطوار عمر الإنسان بعد خروجه إلى الدنيا حتى انتهاء عمره.

والذي حدا بنا إلى اختيار هذا الموضوع هو اتصاله بالقرآن الكريم، مما هيأ لي فهم معظم آيه، إذ ما زال يتردد في مخيلتي ما قاله الزركشي في مقدمة كتابه البرهان : "إن أول ما أعملت فيه القرائح، وعلقت به الأفكار اللواقح، الفحصُ عن أسرار التنزيل، والكشفُ عن حقائق التأويل، الذي تقوم به المعالم، وتثبت به الدعائم، فهو العصمة الواقية، والنعمة الباقية، والحجة البالغة، والدلالة الدامغة.... بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتقارن في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كلَ البيان جوامعُه وبدائعُه، وقد أحكم الحكيم صنعته ومبناه، وقسم لفظه ومعناه إلى ما يُنشِط السامع، ويقرظ المسامع، من تجنيس أنيس، وتطبيق لبيق، وتشبيه نبيه، وتقسيم وسيم، وتفصيل أصيل، وتبليغ بليغ،

وتصدير بالحسن جدير... إلى غير ذلك مما أجرى من الصياغة البديعة، والصناعة الرفيعة".[1]

كما أننا رأينا أن آيات تخلق الجنين تشغل حيزا كبيرا من الذكر الحكيم، فأردنا أن نتبين أسرار سمو القرآن في هذا الجانب العظيم، لعلنا بذلك نستطيع أن نندرك سبب ما كان له من تأثير في النفوس، وسلطان بالقلوب، فآيات مراحل تطور الجنين مجال فسيح لدراسة بلاغية خصبة، يحاول البحث تناول أسلوب هذه الآيات، وخصائصَها التعبيرية، ودلالاتها التركيبية.

وقد اتسقت الآيات البحث مع سياق الآيات السابقة عليها، ومع مقصود السورة التي ذكرت فيها، فلقد ارتبطت آية الحج بقصود السورة؛ إذ إن مقصودها الأولى هو الرد على منكري البعث بإثبات الأدلة على إمكانه؛ لذا نجد سورة الحج أفاضت في ذكر مراحل تخلق الجنين وأطوار عمره، وزادت دليلا آخر محسوسا يمر على المنكرين كل يوم، وهو حال الأرض اليابسة التي ينزل عليها المطر فتتحول إلى واحة فيحاء، وإلى ظلال وارفة، فالذي أحيا الأرض بعد همودة، قادر على بعث الإنسان بعد موته، قال الشيخ الطاهربن عاشور:" أعاد خطاب الناس بعد أن أنذرهم بزلزلة الساعة، وذكر أن منهم من يجادل في الله بغير علم، فأعاد خطابهم بالاستدلال على إمكان البعث وتنظيره بما هو أعظم منه، وهو الخلق الأول، قال تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾ (سورة ق/15)، فالذي خلق الإنسان من عدم وأخرجه من تراب، ثم كونه من ماء، ثم خلقه أطوارا عجيبة، إلى أن يتوفاه في أحوال جسمه، وفي أحوال عقله وإدراكه، قادر على إعادة خلقه بعد فنائه.

ودخول المشركين بادئ ذي بدء في هذا الخطاب، "أظهر من دخولهم في الخطاب السابق؛ لأنهم الذين أنكروا البعث، فالمقصود الاستدلال عليهم؛ ولذلك قيل: إن الخطاب هنا خاص بهم".[1]

---

(1) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، " البرهان في علوم القرآن"تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، **الناشر**، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1376 هـ، 1957 م1، 3.

وكذلك اتسقت آيات سورة المؤمنون بمقصود السورة أيما اتساق، حيث افتتحت السورة بذكر صفات المؤمنين وجزائهم، وهو الفردوس الأعلى لمن اتصف بهذه الصفات، ثم وضحت أن هؤلاء المؤمنين الذين هذه صفاتهم يعرفون خالقهم الذي خلقهم من سلالة من طين، ثم من بقية أطوار خلقهم، ويؤمنون بها وإن لم يعاينوا أكثرها، ولما كان الخطاب هنا خاص بالمؤمنين زادت التفاصيل والأطوار عن التي ذكرها في سورة الحج، فزاد مرحلة سلالة من طين، وهي تلي مرحلة التراب التي ذكرت في الحج، وزادت القرار المكين الذي تستقر فيه النطفة، وزادت تعقيب المراحل بحرف التعقيب(الفاء)، وزادت كساء العظام باللحم، وأجملت بقية المراحل في جملة واحدة، وهي الإنشاء من خلق آخر، ثم ختمت بما يتناسب وحال المخاطبين، وهو تذكيرهم بالثناء على الخالق، وقد لخص ذلك الإمام الرازي في مفاتيح الغيب قائلا:" اعلم أنه سبحانه لما أمر بالعبادات في الآية المتقدمة، والاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفة الإله الخالق، لا جرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية، فذكر من الدلائل أنواعاً".[2]

نلاحظ فروقا جليلة بين ما ذكر من المراحل في آيات سورة (المؤمنون) وآية سورة الحج" أول هذه الفروق أن آيات المؤمنين أضافت قدرا زائدا عند كل مرحلة، وأول ذلك أنها لم تذكر الطين، وإنما ذكرت "سلالة من طين"، ثم قالت: **"جعلناه نطفة"**، ثم أضافت "في قرار مكين"، ثم قالت: **"خلقنا النطفة علقة"**- وراجع لتتبين- والحج لم تقف هذه الوقفات، وإنما قالت: **"من تراب ثم من نطفة ثم من علقة"**، وليس فيها **"خلقنا النطفة علقة"**، وليس فيها **"قرار مكين"**...إلى آخره، ثم إن آية المؤمنون ذكرت المضغة، ثم العظام، ثم كسونا العظام لحما، واستقصت هذه المراحل، .... وفرق كبير بين سياق الآيات في السورتين، فسورة المؤمنون تخاطب المؤمنين ابتداء من أولها إلى آخرها، وليس في القرآن بيان متتابع لأحوال المؤمنين كما في أول هذه السورة، وليس فيها ذكر للضالين إلى قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

---

(1) الطاهر بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير" مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان ط: الأولى، 1420هـ، 2000، 17، 147.

(2) الرازي، محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازى، " مفاتيح الغيب "، دار النشر دار الكتب العلمية، بيروت، 1421 هـ، 2000م، 23، 74.

إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (المؤمنون/23)، وكلها نعم وآيات، وحديث عن الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين يرثون الفردوس، وهذا بخلاف ما جاء في الحج، فإنه خطاب الذين يعبدون آلهة من دون الله – سبحانه- ".[1]

هذا، وكما أن آيات البحث تتفق في ذكر أطوار تخلق الجنين - وإن اختلفت في ذكر ذلك بصورة مجملة أو مفصلة- فإنها – أيضا – تتفق في أن جميعها نزل في العهد المكي؛ لتقيم الحجة على منكري البعث، بإقامة الإدلة والبراهين على قدرة الله – سبحانه وتعالى- فالذي خلقهم من تراب وما بعده من مراحل، قادر على بعثهم وحسابهم بعد أن يتحولوا إلى تراب.

وكَانَتْ خُطَّتِي فِي هذا البَحْثِ هِي: أولاً: مقدمة بينت فيها سبب اختياري لهذا الموضوع،ثم ثنيت بذكر الآيات محل البحث لتكتمل الصورة في ذهن القارىء ابتداء، ثم ثلثت بذكر علاقة آيات تخلق الجنين بالسور التي ذكرت فيها.

هذا وقد جاء صلب البحث في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التحليل البلاغي لآيات سورة الحج.

المبحث الثاني: التحليل البلاغي لآيات سورة المؤمنون.

المبحث الثالث: التحليل البلاغي لآية سورة فاطر.

(1) أبوموسى، محمد محمد أبوموسى، " آل حم(غافر، فصلت) دراسة في أسرارالبيان "ط، مكتبة وهبة، القاهرة، عام 1420هـ، 2009م ص250، 251.

وقد اعتمدت في كل المباحث على تَحْليل الآياتِ تحليلاً بلاغياً كاملاً للوقُوفِ على الأسرارِ البلاغيةِ الكامنةِ في كلِ كلمةٍ بل في كلِ حرفٍ؛ مُسْتَعِيناً باللهِ أولاً، ثم بالمصادرِ البلاغيةِ مِن تَفاسِيرَ وكُتُبِ التُرَاثِ والمَرَاجِعِ الحَدِيثَةِ، وأخيرا خاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث، ثم في النهاية ذكرت فهرس الموضوعات.

المؤلف

د/ طه محمد عبد الفتاح

تركيا – وان

أولا: الآيات

- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ (سورة الحج/5).

- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ (سورة المؤمنون12)

- قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (سورة غافر/67)

ثانيا: علاقة الآيات بمقصد السور:-

وردت آيات أطوار خلق الإنسان في بشكل مفصل في سور الحج، والمؤمنون، وغافر، وقد ورد ذكر هذه الأطور في سور أخرى ولكنني اكتفيت بذكر ثلاث سور لسببين: أولا:فرارا من التكرار الذي هو آفة البحث العلمي .

ثانيا: لأنني وجدت أن هذه الآيات اشتملت على كل أطور خلق الإنسان في بطن أمه، وجمعت معها أطوار عمر الإنسان بعد خروجه إلى الدنيا حتى انتهاء عمره.

وقد اتسقت الآيات السابق ذكرها مع سياق الآيات السابقة عليها ومع مقصد السورة التي ذكرت فيها، فلقد ارتبطت آية الحج بقصود السورة؛ إذ إن مقصودها الأولى هو الرد على منكري البعث باثبات الأدلة على إمكانه؛ لذا نجد سورة الحج أفاضت في ذكر أطوار خلق الإنسان وأطوار عمره وزادت دليلا آخر محسوسا يمر على المنكرين كل يوم، وهو حال الأرض اليابسة التي ينزل عليها المطر فتتحول إلى واحة فيحاء وإلى ظلال وارفة، فالذي أحيا الأرض بعد همود قادر على بعث الإنسان بعد موته، قال الشيخ الطاهربن عاشور[1]:" أعاد خطاب الناس بعد أن أنذرهم بزلزلة الساعة، وذكر أن منهم من يجادل في الله بغير علم، فأعاد خطابهم بالاستدلال على إمكان البعث وتنظيره بما هو أعظم منه، وهو الخلق الأول، قال تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (سورة ق/15)، فالذي خلق الإنسان من عدم وأخرجه من تراب، ثم كونه من ماء، ثم خلقه أطوارا عجيبة، إلى أن يتوفاه في أحوال جسمه، وفي أحوال عقله وإدراكه، قادر على إعادة خلقه بعد فنائه.

---

(1) محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس. مولده ووفاته ودراسته بها، عين عام: 1932، شيخا للإسلام مالكيا. وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات مطبوعة. من أشهرها: مقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، والتحرير والتنوير، في تفسير القرآن، والوقف وآثاره في الإسلام، وأصول الإنشاء والخطابة، و موجز البلاغة، توفي عام 1393هـ" أ.ه ينظر الأعلام للزركلي174/6.

ودخول المشركين بادئ ذي بدء في هذا الخطاب، أظهر من دخولهم في الخطاب السابق؛ لأنهم الذين أنكروا البعث، فالمقصود الاستدلال عليهم؛ ولذلك قيل: إن الخطاب هنا خاص بهم"[1].

وكذلك اتسقت آيات سورة المؤمنون بمقصد السورة أيما اتساق، حيث افتتحت السورة بذكر صفات المؤمنين وجزائهم، وهو الفردوس الأعلى لمن اتصف بهذه الصفات ثم وضحت أن هؤلاء المؤمنين الذين هذه صفاتهم يعرفون خالقهم الذي خلقهم من سلالة من طين، ثم من بقية أطوار خلقهم، ويؤمنون بها وإن لم يعاينوا أكثرها، ولما كان الخطاب هنا خاص بالمؤمنين زادت التفاصيل والأطوار عن التي ذكرها في سورة الحج، فزاد مرحلة سلالة من طين، وهي تلي مرحلة التراب التي ذكرت في الحج، وزادت القرار المكين الذي تستقر فيه النطفة وزادت تعقيب المراحل بحرف التعقيب وزادت كساء العظام باللحم وأجملت بقية المراحل في جملة واحدة وهي الإنشاء من خلق آخر، ثم ختمت بما يتناسب وحال المخاطبين وهو تذكيرهم بالثناء على الخالق وقد لخص ذلك الإمام الرازي[2] في مفاتيح الغيب قائلا:" اعلم أنه سبحانه لما أمر بالعبادات في الآية المتقدمة والاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفة الإله الخالق لا جرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعاً"[3]

---

(1) التحرير والتنوير 147/17.

(2) الفخر الرازي هو: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي: الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الاوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له (ابن خطيب الري) رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة. أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها، وكان يحسن الفارسية. من تصانيفه (مفاتيح الغيب) ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم، و (لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات) و (معالم أصول الدين) و (المسائل الخمسون في أصول الكلام) و (الآيات البينات) و (المحصول في علم الاصول) و (نهاية الايجاز في دراية الاعجاز) بلاغة، وغير ذلك. وله شعر بالعربية والفارسية، وكان واعظا بارعا باللغتين، توفي عام 606هـ-1210م ينظر الأعلام 313/6

(3) مفاتيح الغيب74/23.

وجاءت سورة غافر وهي وإن كانت الأخيرة في الترتيب المصحفي إلا أنها الأولى في ترتيب النزول؛ لذا نجد أنها اختصرت ذكر مراحل أطوار خلق الإنسان على ذكر مرحلتين فقط وهما النطفة والعلقة وذلك لأنها من أوائل السور التي تحدثت عن خلق الإنسان والمخاطبون لا يعرفون من المراحل إلا هذين، بيد أنها فصلت القول عن ذكر أطوار العمر فذكرت مرحلة الطفولة ومرحلة الشباب (الأشد) ومرحلة الشيخوخة ومرحلة الموت لأنهم يعاينون مراحل العمر ففصل فيها القول؛ لذا نلاحظ فروقا جليلة بين ما ذكر من الأطوار في آيات سورة(المؤمنون) وآية سورة غافر" أول هذه الفروق أن آيات المؤمنين أضافت قدرا زائدا عند كل مرحلة، وأول ذلك أنها لم تذكر الطين وإنما ذكرت سلالة من طين، ثم قالت جعلناه نطفة، ثم أضافت في قرار مكين، ثم قالت خلقنا النطفة علقة- وراجع لتتبين- وغافر لم تقف هذه الوقفات، وإنما قالت من تراب ثم من نطفة ثم من علقة، وليس فيها خلقنا النطفة علقة، وليس فيها قرار مكين...إلى آخره، ثم إن آية المؤمنون ذكرت المضغة ثم العظام ثم كسونا العظام لحما، واستقصت هذه المراحل، والذي في غافر طي للمضغة وما بعدها، والانتقال إلى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾ (غافر67)، كل هذا مطوي في سورة المؤمنون في قوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ ﴾ (المؤمنون/14)، وفرق كبير بين سياق الآيات في السورتين، فسورة المؤمنون تخاطب المؤمنين ابتداء من أولها إلى آخرها، وليس في القرآن بيان متتابع لأحوال المؤمنين كما في أول هذه السورة، وليس فيها ذكر للضالين إلى قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (المؤمنون/23)، وكلها نعم وآيات وحديث عن الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين يرثون الفردوس، وهذا بخلاف ما جاء في غافر، فإنه خطاب الذين يعبدون آلهة من دون الله – سبحانه-؛ ولهذا لم تختصر غافر المراحل التي بعد الولادة:(**ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا**) وذكر زمن الأشد والشيخوخة والأجل؛ لأن ذلك مما يتعلق به الغرض الذي هو دعوتهم ليسلموا لرب العالمين، ونهيهم عن عبادة الذين يعبدون من دون الله، وقد اختصرت الكلام؛ لأن التنبيه إلى جمع

هذه الآيات التي اختلفت فيها صور البيان عن معان واحدة ثم تحليل هذه الصور"[1]

هذا، وكما أن آيات البحث تتفق في ذكر أطوار خلق الإنسان وأطوار عمر- وإن اختلفت في ذكر ذلك بصورة مجملة أو مفصلة- فإنها – أيضا – تتفق في أن جميعها نزل في العهد المكي؛ لتقيم الحجة على منكري البعث، بإقامة الإدلة والبراهين على قدرة الله – سبحانه وتعالى- فالذي خلقهم من تراب وما بعده من أطوار، قادر على بعثهم وحسابهم بعد أن يتحولوا إلى تراب.

(1) آل حم(غافر وفصلت) صـ250-251.

المبحث الأول

التحليل البلاغي لآية الحج

المبحث الأول

التحليل البلاغي لآية الحج

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ (سورة الحج/5) .

تركز آية الحج على سوق الأدلة المتتالية؛ لبيان قدرة الله على البعث بعد الموت الذي ينكره الكفرة والملاحدة، فيصرف أفكارهم وأذهانهم إلى أقرب شيء لهم، وهي أنفسهم؛ لينظروا إلى أصلهم الذي منه خلقوا، فمن التراب خلقوا وإليه يعودون، والذي خلق الإنسان من التراب والطين، قادر على نشره بعد موته، ولمن لم يقنعه هذا الدليل، ساق إليه دليلا آخر يرونه بأعينهم صباح مساء، وهو الزرع الذي نبت واخضر من حبة يابسة، وكذلك الأرض التي تراها تارة قاحلة ميتة، وتارة مخضرة مهتزة بألوان النبات والثمار، ولما كان هذا هو المقصد الأسنى من سورة الحج – وهو إثبات البعث والرد على منكريه. تشمل هذه الآية على عدة نكات بلاغية ألبستها حلة أدبية زادتها جمالا ورونقا. وأهم هذه النكات:

افتتاح الآية بالنداء

بدأت الآية بالنداء على مجموع الناس مؤمنهم وكافرهم؛ لذا اتفق مفتتح الآية مع مفتتح السورة، بالنداء على مجموع الناس؛ فتصدرت الآية الكريمة بالنداء المشعر بالإصغاء والتنبيه، ويغلب على الخطاب هنا نداء المنكرين بالبعث؛ لذا استخدم حرف النداء (يا) المختص بنداء البعيد، مع أن المقام لغيره؛ لأنهم ابتعدوا عن الله – تعالى- وعن الحقيقة الواضحة وضوح الشمس، ومع ذلك هم عنها غافلون؛ وهذا ما أكده صاحب التحرير والتنوير قائلا :" ودخول المشركين- بادئ ذي بدء- في هذا الخطاب أظهر من دخولهم في الخطاب السابق؛ لأنهم الذين أنكروا البعث، فالمقصود الاستدلال عليهم؛ ولذلك قيل: إن الخطاب هنا خاص بهم"[1]. بسبب هذا ناداهم بأداة يغلب عليها نداء البعيد " يا : حرف نداء، وزعم بعضهم أنها اسم فعل معناها : أنادي، وعلى كثرة وقوع النداء في القرآن لم يقع نداء إلا بها، وهي أعم حروف النداء، إذ ينادي بها القريب، والبعيد، والمستغاث، والمندوب"[2]."فذلك تنبيه وإرشاد إلى الاعتبار بما في خلقنا من الحكم والأسرار، وينبغي لنا البحث عنها".[3]

---

(1) الطاهر بن عاشور"التحرير والتنوير" 17، 143.

(2) أبو حيان الأندلسى، محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي الجيانى، " تفسيرالبحر المحيط "، ت، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ على محمد معوض وغيرهما، ط، دار الكتب العلمية، بيروت 1421، 2001، 1، 88.

(3) رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا، "تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) "، الناشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: 1990، 1، 152.

جملة الشرط وإيثار (إنْ) ودلالتها البلاغية في الآية :

وجاءت جملة الشرط: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ (الحج/5)، مصدرة بأداة الشرط(إنْ) التي تدل على عدم تحقق الوقوع والشك فيه، مع أن الخطاب موجه لمنكري البعث، وهم ليس عندهم ريب في عدم البعث، بل متيقنون بأنه لن يكون، فكان المقام يستدعي خطابهم خطاب المتيقنين القاطعين بعدم ثبوت البعث، فيخاطبهم بحرف الجزم والقطع (إذا)، ولكنه عدل عنه، وخاطبهم بأدة الشك والتردد - مع أنهم قطعا في ريب- وذلك؛ لتوبيخهم، والتشهير بهم، وتسجيل الجهل عليهم؛ إذ ما يرتابون فيه، ويشكون في أمره، ينبغي ألا يكون منهم، وهم أصحاب عقول ينبغي أن تصل بهم إلى الصواب؛ إذ إن الواقع المشاهد حولهم يشهد بصحة وقوع البعث؛ لذلك ساق الأدلة- بعد هذا الخطاب - التي تثبت ووقوعه من مراحل تخلق الجنين في بطن أمه، ومن إحياء الأرض بعد موتها، وغير ذلك من الأدلة، يقول العلامة الطاهر بن عاشور: "وجعل ريبهم في البعث مفروضا بـ(إن)الشرطية، مع أن ريبهم محقق؛ للدلالة على أن المقام لما حف به من الأدلة المبطلة لريبهم، ينزل منزلة مقام من لا يتحقق ريبه، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ (الزخرف/5")[1].

وذهب الزركشي[2] إلى أن سبب استعمال (إنْ) هنا في موطن التيقن من أجل التغليب؛ لأن هناك من المشركين من هم مرتابون في وقوع البعث، ومنهم

---

(1) الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، 17، 143.

(2) محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين: عالم بفقه الشافعية والاصول، تركي الاصل، مصري المولد والوفاة. له تصانيف كثيرة في عدة فنون، منها: (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) و (لقطة العجلان) في أصول الفقه، و(البحر المحيط) ثلاث مجلدات في أصول الفقه، و(إعلام الساجد بأحكام المساجد) و (الديباج في توضيح المنهاج) فقه، ، و (المنثور) يعرف بقواعد الزركشي في أصول الفقه، و (التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح) و (ربيع الغزلان) أدب و (عقود الجمان، ذيل وفيات الأعيان) وغيرها، توفي عام 794هـ - ينظر الأعلام 6/6.

غير مرتابين – وقليل ما هم – فَغَلَّبَ هنا الكثير وهم المرتابون، على القليل وهم غير المرتابين، فقال:" ومنها: التغليب؛ كقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ (الحج/5)، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (البقرة/23)، فاستعمل (إن) مع تحقق الارتياب منهم؛ لأن الكل لم يكونوا مرتابين، فغلب غير المرتابين منهم على المرتابين؛ لأن صدور الارتياب من غير الارتياب مشكوك في كونه؛ فلذلك استعمل (إن)".[1]

وأنا أميل إلى الرأي القائل بأن (إنْ) خرجت عن معناها الحقيقي إلى معن مجازي؛ لأن الكلام بمثابة دعوة للكفار؛ لأن يعودوا إلى حظيرة الإسلام دون تقنيط أو تيئيس، فأورد النظم كلامهم على أنه غير محقق مع أنه واقع حقا؛ لبيان أنه من حقه أن يكون ضعيفا مشكوكا في وقوعه، وللتنبيه على أن ما يجزمون بوقوعه – بالرغم من تأكد وقوعه بالنسبة لهم – فهو ينبغي أن يكون في مقام التردد وليس اليقين.

حرف الظرفية (في) ودلالته البلاغية :

وجاء النظم بحرف الظرفية (في) قبل كلمة الريب؛ لبيان شدة انغماسهم في هذا الريب الذي أحاط بهم من كل اتجاه، إحاطة الظرف بمظروفه، وأنهم في ظلام دامس يحيط بهم من كل الجوانب، ويسيرون في هذه القضية خبط عشواء، لا يعرفون في أي طريق يسيرون، ولا إلى أي منارة يهتدون.

الفرق بين الشك والريب، والنكتة في إيثار الريب – هنا – دون الشك:

وقد عبر النظم عما يعيشون فيه من تخبط وشرك بالريب، وقد عرف الراغب[2] الريب قائلا: "فَالرَّيْبُ: أن تتوهّم بالشيء أمرا مّا، فينكشف عمّا تتوهّمه".[1]

---

(1) الزركشي، " البرهان في علوم القرآن"، 2، 362.
(2) الراغب الأصفهاني هو: الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان)

بيد أن أبا هلال العسكري[2] كان رأيه أوضح وأبين من الراغب؛ إذ عرف الريب بأنه " شك مع تهمة"[3] فهي تهمة تنطوي على شك، وشك تحوطه تهمة من كل الجوانب، إذاً الريب أشد خطرا من الشك الذي هو "اعتدال النّقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النّقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما، والشَّكُّ ربّما كان في الشيء هل هو موجود أم غير موجود؟ وربّما كان في جنسه، من أيّ جنس هو؟ وربّما كان في بعض صفاته، وربّما كان في الغرض الذي لأجله أوجد"[4]؛ لذا وجدنا النظم القرآن عند الشك في الأمر الخطير والإصرار على إنكار المنكرين له يستخدم الريب، وأكثر ما ورد في النظم مع التشكيك في نزول القرآن، أو التشكيك في صحة وقوع البعث، كما أنه ورد في القرآن مجيء الشك موصوفا بالريب – وهذا في أقصى مواطن الشك – فقال تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ (سبأ/54)، ولم يرد الريب موصفا

سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، من كتبه: محاضرات الأدباء، و الذريعة إلى مكارم الشريعة، و الأخلاق، ويسمى: أخلاق الراغب، و جامع التفاسير، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره، و المفردات في غريب القرآن، و حل متشابهات القرآن، و تفصيل النشأتين، في الحكمة وعلم النفس، وتحقيق البيان، في اللغة والحكمة، وكتاب في الاعتقاد و أفانين البلاغة، توفي عام 502ه "أ.ه ينظر الأعلام للزركلي 2 /255

(2) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة خلق صـ296 تحقيق / صفوان عدنان داودي- ط/ دار العلم الدار الشامية – بيروت عام 1412 هـ

(1) الراغب، الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، " مفردات ألفاظ القرآن"، دار النشر، دار القلم، دمشق ص 368، مادة ريب.

(2) أبو هلال العسكري هو: الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العسكري، أبو هلال: عالم بالأدب، له شعر. نسبته إلى (عسكر مكرم) من كور الأهواز. من كتبه: التلخيص في اللغة، وجمهرة الأمثال، الحث على طلب العلم، و كتاب الصناعيتن في النظم والنثر، و شرح الحماسة، و الفرق بين المعاني، والعمدة، وما تلحن فيه الخاصة، والمحاسن في تفسير القرآن وغيرها، توفي عام 395ه"الأعلام2/196.

(3) أبو هلال العسكري، "الفروق اللغوية"، تحقيق، لجنة إحياء التراث العربي، ط، دار الآفاق الحديثة، الطبعة الخامسة، 1983، 1، 164.

(4) الراغب الأصفهاني، " مفردات ألفاظ القرآن"، مادة (شك).

بالشك، مما يدل على أن الأخير أخف وطأة من الأول، وأقل منه خطرا؛ لأنه متردد، والأمران عنده سواء؛ فبمجرد وصوله إلى الحقيقة يرجع إلى ما يراه صوابا، بخلاف المرتاب الذي يعرف الحق ويفر منه، بل ويصد عنه الآخرين، فالتعبير بلفظ الريب دون الشك؛ لأنهم توهموا عدم إمكان البعث مرة أخرى؛ لاستحالته في وجهة نظرهم، فالقرآن يصور مكابرتهم في عدم إذعانهم للحق من خلال هذه اللفظة التي تصور هذا العناد المبني على غير حقيقة.

تنكير كلمة (ريب):

وقد عبر النظم عن هذا الشك المصاحب بتهمة بالاسم المُنَكَّر؛ لبيان أن ريبهم هذا مهما كانوا متيقنين منه وواثقين من عدم إمكان البعث، فهو ريب ضعيف – بالنسبة لقدرة الله – ويسهل هدمه، قال الآلوسي[1]– رحمه الله-: " كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك؛ للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفا مشكوك الوقوع، وإما للتنبيه على أن جرمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف؛ لكمال وضوح دلائل الإمكان ونهاية قوتها".[2]

---

(1) الآلوسي هو: عبد الله بهاء الدين بن محمود شهاب الدين بن عبد الله الآلوسي: فقيه بغدادي من قضاة الشافعية، تخرج بأبيه، وترفع عن المناصب، وعكف على التدريس. ومرض وتصوف وباع كتبه وعقاره، وقصد استنبول، فاعترضه قطاع الطرق، فعاد إلى بلده صفر اليدين. واضطر إلى العمل الحكومي، فولي قضاء البصرة مدة سنتين، وأكلت الحمى جسمه، فرجع إلى بغداد، ففارق الحياة. ألف عند سنوح الفرص كتبا، منها.تفسير روح المعاني، و المتنان في علمي المنطق والبيان، ونشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول، رحلته إلى الأستانة، و نشوة المدام في العود إلى دار السلام، و غرائب الاغتراب، ضمنه تراجم الذين لقيهم، وأبحاثا ومناظرات، و دقائق التفسير، و الخريدة الغيبية، شرح به قصيدة لعبد الباقي الموصلي، و كشف الطرة عن الغرة، شرح به درة الغواص للحريري، و وغيرها من المصنفات.ونسبة الأسرة الآلوسية إلى جزيرة (آلوس) في وسط نهر الفرات، على خمس مراحل من بغدادتوفي عام 1270هـ "ينظر الأعلام للزركلي

(2) الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، تحقيق، علي عبد الباري عطية، الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1415 هـ، 9، 111.

إيثار الاسم دون الفعل:

كما أن التعبير عنه بالاسم(ريب) دون الفعل ارتبتم؛ لإظهار مبالغتهم في إنكار البعث، وثبوتهم عليه مع وضوح الأدلة الدامغة على إمكان حدوثه، وما يرونه أمام أعينهم من إحياء الأرض الميتة وإخراجهم من بطون أمهاتهم بعد أن كانوا عدما، كما أن التعبير بالفعل – أيضا-؛ "للمبالغة في تنزيه أمره عن شائبة وقوع الريب، والإشعار بأن ذلك إن وقع فمن جهتهم لا من جهته، واعتبار استقرارهم فيه، وإحاطته بهم لا ينافي اعتبار ضعفه وقلّته، لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لا قوته وكثرته".[1]

نوع (مِنْ) في الآية ودلالتها البلاغية:

و(مِنْ) في قوله :(مِّنَ الْبَعْثِ)، قيل[2] بأنها ابتدائية، متعلقة بمحذوف يدل عليه ما ذكر بعد وهو إمكان البعث، وذهب آخرون بأن المتعلق المحذوف هو البعث، والسياق يعضد الرأي الأول؛ لسرده الأدلة التي تؤكد إمكان البعث، وأنه ليس على الله بعزيز، وتكررت (من) أربع مرات لتأكيد هذه الحقيقة التي يتمارى فيها هؤلاء المشركون؛ ليعود عن غيهم.

ومن الممكن اعتبار(من) هنا بيانية، تبين نوع الريب الذي يترددون فيه وتحديده، وهو الشك في إمكان البعث، إذ النص القرآني حمَّال أوجه، والسياق يؤكد – أيضا – هذا المحمل.

مادة (بعث) ودلالتها البلاغية:

" والبَعْثُ في كلام العرب على وجهين: أَحدهما: الإرْسال، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴾ (الأعراف /103)، معناه أَرسلنا، والبَعْثُ إِثارةُ بارِكٍ أَو قاعدٍ، تقول: بَعَثْتُ البعير فانبَعَثَ، أَي أَثَرْتُه فَثار، والبَعْثُ –

(1) الآلوسي، "روح المعاني"، 9، 111.
(2) المصدر السابق.

أيضاً- الإحْياء من الله للمَوْتى"[1]، والمرد هنا المعنى الثاني، وإن كانت مادة (بعث) تدور حول:" إثارة الشيء وتوجيهه"[2]، فالبعث بمعنى الإرسال، هو إثارة وتوجيه، وكذلك إحياء الله الموتى هو إثارة لهم من مرقدهم، وتوجيههم إلى أرض المحشر، وقد فرق أبو هلال العسكري بين البعث والنشور قائلا: "الفرق بين البعث والنشور: أن بعث الخلق اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ (يس/52)، والنشور: اسم لظهور المبعوثين وظهور أعمالهم للخلائق، ومنه قولك: نشرت اسمك، ونشرت فضيلة فلان، إلا أنه قيل: أنشر الله الموتى بالألف، ونشرت الفضيلة والثوب، للفرق بين المعنيين".[3]

التوكيد وأثره البلاغي في سياق الآية:

ولما كان حال المشركين هو إنكار البعث، أكد النظم الكلام؛ ليتناسب مع مقام الإنكار، فجاء قوله تعالى: (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) مؤكدا بـ (إن)؛ ليطابق مقتضى الحال، ووقع هذا التأكيد في جملة دليل جواب الشرط، وليست جملة الجواب، وهذا ما مال إليه العلامة ابن عاشور ورجحه، فقال:" وجملة: (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) واقعة موقع جواب الشرط، ولكنها لا يصلح لفظها لأن يكون جوابا لهذا الشرط، بل هي دليل الجواب، والتقدير: فاعلموا أو فنعلمكم بأنه ممكن كما خلقناكم من تراب مثل الرفات الذي تصير إليه الأجساد بعد الموت"[4] ولكن الإمام الآلوسي من قبله ضعف هذا التأويل ورجح أن تكون الجملة نفسها جوابا للشرط بتأويل، فقال: " وقوله تعالى: (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) دليل جواب الشرط، أو هو الجواب بتأويل أي: وإن كنتم في ريب من

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، "لسان العرب"، ط، دار صادر، بيروت، مادة بعث.
(2) الراغب الأصفهاني، "مفردات ألفاظ القرآن"، 1، 100، مادة بعث.
(3) أبو هلال العسكري، "الفروق اللغوية"، 1، 103.
(4) الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، 17، 143.

البعث فانظروا إلى مبدأ خلقكم؛ ليزول ريبكم فإنا خلقناكم إلخ، وقيل : التقدير فأخبركم وأعلمكم أنا خلقناكم إلخ وليس بذاك"[1].

(1) الآلوسي، "روح المعاني"، 9، 111.

النكته البلاغية في إيثار الفعل الماضي:

والتعبير بالفعل الماضي في قوله: (خَلَقْناكُمْ)؛ لبيان أن الخلق كأنه تم وانتهى؛ لتحقق وقوعه، فقضية الخلق أمر مفروغ منها ومكتوب، والمخلوقون نطف في ظهور آبائهم،" وتقديم الفاعل المعنوي للفعل (خلق) في (إنا) تأكيدا على أمر الخلق والإنشاء الأول؛ لأن هؤلاء المجادلين المشركين ينكرون أمر البعث كما ينكرون أن الله هو المنشئ الخالق لهم، فأتت الآيات والأخبار مقترنة بالدلائل والمؤكدات حتى لا تدع لهم مجالا للإنكار والمجادلة في أمر الخلق مع أمر البعث والإحياء.

والتعبير بضمير المتكلم للتعظيم والتفخيم من أمر الخلق، ثم لا يخفى أن تلك الأحوال التي ذكرت في الآية معلومة لدى المخاطبين وإن لم تكن كلها، فإن معظمها معلوم، ولكن الآية أوردتها في صورة أخبار متتالية؛ لتذكر هؤلاء وتدعوهم إلى التأمل والتدبر في أطوار خلقهم وإنشائهم، وكيف مرت تلك الخلقة في أطوار متتالية حتى خرجت إلى الحياة، ثم قويت واشتدت بعد هذا؛ لتحي – من أراد الله لها الحياة – وتعمر، أو تموت وتفنى، فمن صنع كل هذا قادر على الإحياء مرة أخرى للحساب والجزاء".[1]

(1) أسماء شعبان، "دفع توهم التعارض في آيات خلق الإنسان بين الإعجاز العلمي والإعجاز البلاغي"، بحث مستل من المؤتمر العلمي الدولي الثاني، عام 1431هـ، 2010م، ص 1172.

المرحلة الأولى من مراحل تخلق الجنين والأسرار البلاغية فيها :

وقد اشتملت جملة الجواب على أصل الخلق والنشأة وهو التراب، وبتتبع لفظة التراب في النظم الكريم نجد أنها ذكرت سبع مرات[1] كلها تتحدث عن أصل الخلق ما عدا آية البقرة، ومن الملاحظ أنها وردت في الآيات كلها نكرة، ولم ترد معرفة؛ إذ إن تنكيرها يفيد الإبهام، وهو عنصر من عناصر التشويق والإثارة في الكلام؛ ولبيان أن التراب المذكور مبهم لا يدرك كنهه، فهو يشمل كل أنواع التراب كما أخبر بذلك النبي – ﷺ – (إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، جاء منهم الأَحْمَرُ، والأبيض، والأسود، من ذلك السهل، والحزن، والخبيث، والطيب)[2] مما يدل على أن الناس من تراب الأرض ومعادنها، فمنهم التراب الخالص، ومنهم الحديد ومنهم الذهب؛ لأن طينتهم من هذه الأرض وما فيها من أخلاط المعادن".[3]

---

(1) وهي على الترتيب المصحفي: البقرة، 264، آل عمران، 59، الكهف، 37، الحج، 5، الروم، 20، فاطر، 11.

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، " الجامع الصحيح المسند من حديث الرسول– ﷺ وسننه وأيامه المشهور بصحيح البخاري) "، ت، مصطفى ديب البغا، ط، ابن كثير اليمامة، بيروت، عام 1407 هـ، 1987م، رواه سيدنا أبوموسى الأشعري، 6، 364، باب خلق آدم وذريته.

(3) ينظر عبد الكريم الخطيب، "الإنسان في القرآن"ص 21.

السر البلاغي في التعبير بلفظي التراب والطين في مراحل تخلق الجنين:

وذكر النظم القرآني في التعبير عن مراحل تخلق الجنين لفظي التراب والطين؛ وذلك لتذكير المخلوقين بأصلهم البعيد، وفي ذلك قرع لأذهان المخاطبين عامة، والمنكرين المجادلين خاصة، وذكر الخلق من تراب في هذه السياقات أحسن وقعا وأشد تأثيرا؛ إذ إنه وقع في بال المنكرين بالبعث أنهم سيتحللون إلى تراب بعد موتهم فيستحيل إحياءهم مرة أخرى – في ظنهم – فأحالهم الله إلى أنفسهم وأصل تكوينهم وهو التراب، والذي خلق الإنسان من تراب قادر على بعثه؛ إذ الإعادة أهون من البداءة، وإن كان الكل هينا في جانب قدرة الخالق.

الأسرار البلاغية في تنوع العناصر التي خلق منها الإنسان:

هذا، وقد تنوع خلق الإنسان في النظم الكريم، فمرة يذكره بخلقه من تراب، ومن طين، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال، وطين لازب، وكان لهذا التنوع دلالته، فقد ذكر الرازي أن هذا التنوع قد يكون لمحض المشيئة، أو لما فيه من إظهار القدرة على أكمل وجه، قال الرازي: "بل هو قادر على خلقه ابتداء، وإنما خلقه على هذا الوجه إما لمحض المشيئة، أو لما فيه من دلالة الملائكة ومصلحتهم ومصلحة الجن؛ لأن خلق الإنسان من هذه الأمور أعجب من خلق الشيء من شكله وجنسه".[1]

وذكر الآلوسي أنه لا منافاة بين ذكر أو تنوع هذه العناصر، فمرة يذكر المادة البعيدة وهي التراب، وتارة يذكر المادة القريبة وهي النطفة أو المني؛ لبيان طلاقة القدرة وهيمنة الخالق، فقال: " وذكر هنا خلقه من طين، وفي آل عمران خلقه من تراب، وفي الحِجْر من صلصال من حمأ مسنون، وفي الأنبياء من عَجَلٍ، ولا منافاة، غاية ما في الباب أنه ذكر في بعض المادة القريبة، وفي بعض المادة البعيدة".[2]

---

(1) الرازي، "مفاتيح الغيب"، 19، 132.
(2) الآلوسي، "روح المعاني"، 12، 294.

وقد يكون في هذا التغاير اللفظي بين العناصر التي خلق منها الإنسان- سواء أكان آدم الأصل، أم ذريته الفرع-" تدرج مع عقول المخاطبين – المنكرين للقدرة – وفق مقتضى حالهم؛ لذا خاطبهم بما يشاهدون ويحسون ويعرفون حتى تكون في أيديهم مواد الأدلة الحسية التي تصاحبهم صباح مساء، فيلزمهم الله الحجة، ويكون في ذلك مدعاة لتفكيرهم واستمالتهم".[1]

وقد يكون في هذا التنوع "إشارة إلى ما فينا من غرائز متأصلة لزجة كالطين الازب، وهذه الغرائز تشتد وتقوى حتى تشبه الحمأ المسنون، ثم نحن مع مغريات الحياة من مالٍ وجاهٍ ونساءٍ كالصلصال والفخار سهل الانكسار".[2]

النكتة في إيثار مادة التراب هنا:

واختار هنا مادة التراب دون غيرها – أثناء الحديث عن البعث ومجادلة المنكرين-؛ لأن التراب "أبعد الأشياء عن درجة الأحياء، وذلك من حيث كيفيته، فإنه بارد يابس، والحياة بالحرارة والرطوبة، ومن حيث لونه فإنه كدر والروح نير، ومن حيث فعله فإنه ثقيل والأرواح التي بها الحياة خفيفة، ومن حيث السكون فإنه بعيد عن الحركة، والحيوان يتحرك يمنة ويسرة، وإلى خلف وإلى قدام، وإلى فوق وإلى أسفل، وفي الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الأجسام لأن العناصر أبعد من المركبات؛ لأن المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب؛ لأن الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الأرواح والنار أقرب لأنها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فإنه ممتزج، وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهي مرتبة النبات الذي ينبت في الأرض ولا يبرز ولا يرتفع، ثم النباتات وأعلى مراتبها وهي مرتبة الأشجار التي تقبل التعظيم، ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات، وهي مرتبة الحشرات التي ليس لها دم سائل ولا هي إلى المنافع

---

(1) عبد الحليم شادي، "مقال البرهان التسلمي"، مجلة اللغة العربية إيتاي البارود، العدد 16، عام 1420هـ، 2000م، ص 87، 88.

(2) محمد محمود حجازي، "الوحدة الموضوعية في القرآن"، ط، دار الكتب الحديثة، القاهرة، عام 1390هـ، 1970م، ص 144.

الجليلة وسائل كالنباتات، ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الإنسان فإن الأنعام ولا سيما الفرس"[1]

القول في المخلوق من التراب، هل هو آدم عليه السلام أو الذرية؟

وذهب مجموعة من المفسرين[2] إلى أن المراد من الضمير في قوله: (خلقناكم) هو آدم – عليه السلام – وذريته خلقت منه، فالأصل خلق من تراب، والفرع خلق من نطفة الأصل، وعلى هذا الرأي يكون في الكلام إيجاز بالحذف، وفي الإيجاز إثارة وتشويق للبحث عن المحذوف، وهو خلقنا أصلكم من تراب، وفيه – أيضا – مجاز مرسل علاقته السببية؛ لأن آدم–عليه السلام- جعله الله سببا في ذريته، فذكر اللسبب وهو الأصل، وأراد المسبب وهم ذريته.

وخص أصلهم بالذكر؛ لأنه خلق من مادة مغايرة له وهي التراب، وفي ذلك نفي للعجب، وكأنه يقول: كيف تتعجبون من بعثكم بعد موتكم، وقد خلقت أصلكم من شيء ميت ليست فيه حياة؟

وذهب آخرون إلى أن الكلام هنا ينْصَبُ على الذرية وليس آدم – عليه السلام- فقط، وتَزعَّم هذا الرأي الإمام الرازي، وكانت له لفتة لطيفة توصل إليه، وهي أن جميع المخلوقات خلقت من تراب، فهو غذاء للنباتات، والنباتات غذاء للطير والحيوانات، وهما والنباتات غذاء للإنسان، وسبب في تكوين الحيوانات المنوية، فالإنسان أصله من التراب، فالمقصود هنا الذرية وأصلها، وليس الأصل فقط، فقال:" أن خلقة الإنسان من المني ودم الطمث وهما إنما يتولدان من الأغذية، والأغذية إما حيوان، أو نبات، وغذاء الحيوان ينتهي قطعا

---

(1) مفاتيح الغيب 89/25.

(2) ينظر الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى، "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل"، الناشر، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة، 1407 هـ، 3، 143، وينظر الرازي "مفاتيح الغيب" 23، 103، وينظر البقاعي، برهان الدين البقاعي، " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" ط، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، عام 1424هـ، 5، 612.

للتسلسل إلى النبات، والنبات إنما يتولد من الأرض والماء، فصح قوله: (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرابٍ)".[1]

وعلى هذا الرأي يكون الكلام – هنا – على المجاز المرسل علاقته المحلية، حيث أطلق المحل وهو التراب وأراد الحال وهو النبات، أو علاقته السببية، حيث أطلق السبب وهو التراب، وأراد المسبب عنه وهو النبات، ويجوز أن تكون علاقته اعتبار ما كان، فأصل النطفة – على رأي الرازي – طعام، وأصلُ الطعام – حيوانا أو طيرا – النباتُ، وأصلُ النبات الأرضُ والتراب .

الدلالات البلاغية لحرف المهلة (ثُمَّ) في الآية :

ويأتي قوله تعالى: (ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ) بحرف العطف (ثُمَّ) التي تفيد الترتيب والتراخي، إذ إن هناك فترة زمنية طويلة بين مرحلة التراب ومرحلة النطفة، على الاعتبار الأول – وهو أن المقصود بالتراب وهو آدم -عليه السلام – تكون الفترة طويلة، والذي يصلح لذلك هو حرف العطف (ثُمَّ) الذي يدل على المهلة، ولعل ذلك هو ما أومأ إليه الطاهر بن عاشور قائلا:"و (ثُمَّ) التي عطف بها (ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ) عاطفة مفردات فهي للتراخي الحقيقي".[2]

بيدا أنني رأيت عند العلامة الشهاب الخفاجي[3] ملحظا يغوص فيه داخل دلالات حرف المهلة؛ إذ إنها مع اعتبار التراخي في الزمن؛ أفادت – أيضا – البعد الحسي، وذلك يكون بين أمرين بينهما تفاوت كبير، فتحول التراب إلى

---

(1) الرازي، "مفاتيح الغيب"، 23، 104.

(2) الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"17، 144.

(3) الشهاب الخفاجي هو: أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي المصري: قاضي القضاة وصاحب التصانيف في الأدب واللغة. نسبته إلى قبيلة خفاجة. ولد ونشأ بمصر، ورحل إلى بلاد الروم، واتصل بالسلطان مراد العثماني فولاه قضاء سلانيك، ثم قضاء مصر.من أشهر كتبه: ريحانة الألباب، ترجم به معاصريه على نسق اليتيمة، وشرح درة الغواص في أوهام الخواص للحريري، وطراز المجالس، وعناية القاضي وكفاية الراضي، حاشية على تفسير البيضاوي وغيرها من المصنفات توفي عام 1069" الأعلام1238.

نطفة – بعقلنا البشري – محال، ولكنه مع قدرة الله أهون عليه من غيره، وكذلك تحول النطفة البيضاء – وهي قطرة المني – إلى علقة حمراء، أمر صعب، فجاء حرف المهلة؛ ليكشف لنا عن تلك القدرة الباهرة التي تعجز عنها البشرية، وكأن حرف المهلة بُوْصَلةٌ تشير إلى مناط الإعجاز، قال الشهاب الخفاجي :" يعني أنّ بعضها مستبعد حصوله مما قبله وهو المعطوف بـ(ثم)، فجعل الاستبعاد عقلاً أو رتبة، بمنزلة التراخي والبعد الحسيّ؛ لأنّ حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جدا، وكذا جعل تلك النطفة البيضاء دماً أحمر، بخلاف جعل الدم لحماً مشابها له في اللون والصورة، وكذا تثبيتها وتصليبها حتى تصير عظماً؛ لأنه قد يحصل ذلك بالمكث فيما يشاهد وكذا مد لحم المضغة عليه ليستره، وهذا ما عناه المصنف فافهم".[1]

المرحلة الثانية (النطفة) والنكتة البلاغية في التعبير بها، والفرق بينها وبين الماء والمني:

وقد عرف الراغب النطفة بقوله:" النطفة: الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل"[2] وهي أول مبدأ تخلق الجنين في بطن أمه، وهي من النطف بمعنى القطر والصب، فهو ماء يقطر أو يصب في رحم الأنثى.

وقد عبر النظم الكريم عنها بألفاظ متعددة في سياقات مختلفة، فمرة يعبر عنها بالماء، وتارة يعبر عنها بالمني، ولكن كل كلمة منها في سياقها تدل دلالة غير أختها، فهناك فروق دقيقة بين الكلمات الثلاث، فالماء يطلق على ما ينزل من الرجل، وما ينزل من المرأة، قَلَّ أو كَثُر، سواء أكان سببا في الانجاب أم لا؟؛ لذا يوصف في القرآن بالمهانة أو الدفقان؛ لحقارته وشدته، أما إذا كان سببا للإنجاب جيء بلفظ النطفة؛ لذا يعقبها كثيرا مراحل الخلق الأخرى مثل: العلقة والمضغة، وقبل ذلك الأمشاج، وهو اختلاط ماء الرجل بماء الأنثى، وهذا يكون قبل تكوين الجنين، أما المني فإنه يذكر قبل التخليق والتقدير ونوع المولود ذكرا

---

(1) الشهاب الخفاجي، أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي: "حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي(الْمُسَمَّاة) عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى"دار النشر: دار صادر، بيروت، 6، 322.

(2) الراغب الأصفهاني، "مفردات ألفاظ القرآن"، 2، 435، مادة (نطف).

أم أنثي؛ لذا نلحظ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ (النجم/45-46)، أنه وصف النطفة بالإمناء وهو التخليق والتقدير، قال الراغب في بيان معنى المني:"المنى: التقدير. يقال: منى لك الماني، أي: قدر لك المقدر، ومنه: المنا: الذي يوزن به فيما قيل، والمني للذي قدر به الحيوانات. قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴾ (القيامة/37)، ﴿ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴾ (النجم/46)،أي: تقدر بالعزة الإلهية".[1]

وقد لاحظ هذا الفرق الدقيق- أيضا- صاحب الفروق اللغوية قائلا: "الفرق بين النطفة والمني: أن قولك: النطفة يفيد أنها ماء قليل، والماء القليل تسميه العرب النطفة، يقولون: هذه نطفة عذبة، أي: ماء عذب، ثم كثر إستعمال النطفة في المني، حتى صار لا يعرف بإطلاقه غيره، وقولنا: المني يفيد أن الولد يقدر منه، وهو من قولك: منى الله له كذا، أي قدره، ومنه المنا الذي يوزن به؛ لأنه مقدر تقديرا معلوما".[2]

(1) الراغب الأصفهاني، "مفردات ألفاظ القرآن"، 2، 391، مادة منى.
(2) أبو هلال العسكري، "الفروق اللغوية"، 1، 542.

البلاغة في تنكير (نطفة):

وقد جاءت كلمة (نطفة) نكرة لإفادة التقليل، حيث إن النطفة المخلقة التي يكون منها الإنجاب– بإذن الله – إنما هي جزء قليل من الدفقة التي يدفقها الرجل في رحم الأنثى، حيث أثبت العلم الحديث أن "النطفة تتكون من السائل المنوي، الذي يكون 99% من مجموع المني، وأن الدفقة الواحدة تحمل مائتي مليون حيوانا منويا، والذي يلقح البويضة حيوان منوي واحد فقط، وصدق رسول الله – ﷺ – (مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ خَلْقَ شَيْءٍ لَمْ يَمْنَعْهُ شَيْءٌ)[1] وهذا الأمر لم يعلم إلا في القرن العشرين"[2].

وكما أن(نطفة) النكرة تفيد التقليل، فهي تفيد التحقير- أيضا-، ففي هذه النكرة إشارة من طرف خفي إلى الإنسان المغرور المتكبر، بأن كبره وغرورها لا محل لهما، إذا تفكر في أصل مبدأه، فهو نطفة حقيرة،خرجت من مجرى البول، وأنه لا حول له ولا قوة فيما هو فيه، بل ينظر إلى عظمة الخالق التي حولت نطفة – لو أنها كانت على ثيابه لاستحي منها – إلى بشر سوي يمشي ويتحرك.

الفرق البلاغي بين ذكر (نطفة) مفردة وموصوفة بالأمشاج:

وعند تصفح آيات تخلق الجنين نجد أن كلمة:(نطفة)، جاءت مفردة غير موصوفة، -إلا في آية سورة الإنسان – فقد جاءت مفردة موصوفة، وهي قوله تعالى :﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ (الإنسان/2)، وجاءت موصوفة هنا؛ لبيان مرحلة آخرى من مراحل تطور النطفة، وهي تجمعها في بويضة المرآة بعد اختلاطها بمني المرأة أو بدمها، ولعل انفرد سورة الإنسان بهذا الوصف – والله أعلم– أنها نزلت هي وسورة الحج في أواخر العهد المكي، بعد أن دخل عدد كبير في الإسلام، وعرفوا أطوار خلق الإنسان، وبعد سوق الإدلة السابقة ليس هناك عذر لمن لم يوقن بالبعث، تحولت الآيات في هذا العهد

(1) رواه الإمام مسلم، عن أبي سعيد الخدري، باب حكم العزل، 4، 159، حديث رقم 3627.
(2) محمد كامل عبد الصمد، "الإعجاز العلمي في القرآن"، ط 1997.

بالدخول في تفاصيل التفاصيل؛ لتغير الفئة التي يوجه إليها الخطاب، فبدأ الحديث عن النطفة الأمشاج، وعن المضغة المخلقة وغير المخلقة، وعن القرار المكين، وعن وصف الأرحام وغيرها من تلك التفاصيل التي تدعوا إلى التفكر في خلق الله.

وقد ذهب العلماء في بيان الأمشاج مذاهب مختلفة كلها تدور حول الاختلاط، فقد نقل الإمام الرازي رأيا يقول: بأنها تتكون من اختلاط ماء الرجل بدم الحيض لِتُكَوّن العلقة " وقال الحسن: يعني من نطفة مشجت بدم وهو دم الحيضة، وذلك أن المرأة إذا تلقت ماء الرجل وحبلت، أمسك حيضها، فاختلطت النطفة بالدم".[1]

وذهب الإمام أبو السعود[2] إلى رأي آخر – اعتقد أنه الصواب؛ لتوافقه مع ما جاءت به السنة، وما أخبر به العلم الحديث- وهو أن المراد بالإمشاج: هو اختلاط ماء الرجل بماء الأنثى، فقال – رحمه الله-:"وصف النطفة به- أي بالأمشاج - لما أن المراد بها مجموع الماءين، ولكل منهما أوصاف مختلفة من اللون، والرقة، والغلظ، وخواص متباينة، فإن ماء الرجل أبيض غليظ فيه قوة العقد، وماء المرأة أصفر رقيق فيه قوة الانعقاد، يخلق منهما الولد فما كان من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة.

---

(1) الرازي، "مفاتيح الغيب"، 30، 740.

(2) أبو السعود هو: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود: مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين. ولد بقرب القسطنطينية، ودَرَس ودَرَّس في بلاد متعددة، وتقلد القضاء في بروسة بالقسطنطينية فالروم ايلي، وأضيف إليه الافتاء سنة 952 هـ وكان حاضر الذهن سريع البديهة: (كتب الجواب مرارا في يوم واحد على ألف رقعة) باللغات العربية والفارسية والتركية، تبعا لما يكتبه السائل. وهو صاحب التفسير المعروف باسمه وقد سماه (إرشاد العقل السليم إلى مرايا الكتاب الكريم) ومن كتبه (تحفة الطلاب) في المناظرة، و (رسالة في المسح على الخفين) و (رسالة في مسائل الوقوف) وأخرى في (تسجيل الاوقاف) و (قصة هاروت وماروت) وشعره جيد خلص كثير منه من ركاكة، توفي عام982هـ -1574م، الأعلام7/59.

وقيل أمشاج: ألوان وأطوار، فإن النطفة تصير علقة، ثم مضغة إلى تمام الخلقة".[1]

ولعل ذكر هذا المرحلة في القرآن أكثر من ذكر غيرها من المراحل الأخرى التالية لها في الخلق، فقد ذكر - كما رينا - بألفاظ متعددة وفي سياقات مختلفة، وذلك لحكمة بليغة، وهي أن هذه المرحلة يشاهدها كل الناس، المؤمنون بالبعث والمنكرون له، فخاطب الله الجميع بما يشاهدونه من تحول الماء المهين والنطفة المذرة إلى خلق آخر من لحم وعظم وروح، فذلك أدعى إلى إيمان الكافر، وزيادة يقين المؤمن، وأبلغ في وعظ وإرشاد الجميع، أما المراحل الأخرى فكان ذكرها أقل، والسبب في ذلك هو نزوله في أواخر العهد المكي؛ لمخاطبة العقول المؤمنة بعد أن خاطب منكري البعث الذين لا يؤمنون إلا بما يشاهدونه بأعينهم.

المرحلة الثالثة: (العلقة) ومدلولها البلاغي في الآية:

ثم انتقلت بنا الآيات إلى المرحلة الثالثة من مراحل تخلق الجنين في بطن أمه وهي العلقة، وقد عرف ابن منظور العلق بقوله: " عَلِقَ بالشيءِ عَلَقاً وعَلِقَهُ نَشِب فيه" وكان ذلك منه على عموم اللفظ، فانتقل إلى التفصيل قائلا: "قطع الدم الواحدة (عَلَقَةٌ) .....وفي التنزيل (ثم خلقنا النُّطْفَة عَلَقةً)، ومنه قيل لهذه الدابة التي تكون في الماء: عَلَقةٌ؛ لأنها حمراء كالدم، وكل دم غليظ عَلَقٌ".[2]

وقد نظر العلامة الراغب إلى مدلول اللفظ لإبراز المعنى، إذ إن اللفظ له دلالة من معناه، فبين أن العلقة سميت بهذا الاسم؛ لتعلقها بالرحم، فقال: " العَلَقُ: التّشبّث بالشّيء، يقال: عَلِقَ الصّيد في الحبالة، وأَعْلَقَ الصّائد: إذا علق الصّيد في حبالته ....، والعَلَقُ : الدّم الجامد ومنه: العَلَقَةُ التي يكون منها الولد".[3]

---

(1) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، عام 1421هـ، 9، 70.
(2) ابن منظور، " لسان العرب"، مادة (علق).
(3) الراغب الاصفهاني، "مفردات ألفاظ القرآن"، 1، 579، مادة (علق).

ونلحظ من هذين النصين دقة الإعجاز البلاغي في اختيار اللفظ الملائم للمعنى في شكله ومقداره، من خلال وسم العلقة بهذا الاسم، والعلقة مرحلة تالية للنطفة، تكونت بعد مرور فترة تقدر بأربعين يوما – كما أخبرت بذلك السنة النبوية- كما ورد في صحيح مسلم من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود[1]، قال رسول الله – ﷺ -: (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِى بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِى ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِى ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِىٌّ أَوْ سَعِيدٌ.....".[2]

ومن خلال هذا الحديث، يتبين لنا سبب إيثار حرف المهلة(ثُمَّ) بين مرحلتي النطفة والعلقة؛ ولبيان الترقي –أيضا – من مرحلة إلى مرحلة أعلى منها، فكما أفادت (ثُمَّ) التراخي في الزمن؛ لبيان مدة الإيام الأربعين، أفادت التراخي في المرتبة كما بينت من ذي قبل.

وقد سميت العلقة بذلك لشدة تعلقها بجدار الرحم على الرغم من صغر حجمها" وتناهي وزنها، حيث يبلغ طولها حوالى نصف مليمتر، ويكاد يكون وزنها معدوما".[3]

الفروق البلاغية بين الإفراد والجمع في كلمتي علقة وعلق:

---

(1) سيدنا عبد الله بن مسعود هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن: صحابي. من أكابرهم، فضلا وعقلا، وقربا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. وكان خادم رسول الله الأمين، وصاحب سره، ورفيقة في حله وترحاله وغزواته، يدخل عليه كل وقت ويمشي معه. نظر إليه عمر يوما وقال: وعاء ملئ علما. وولي بعد وفاة النبي - ﷺ- بيت مال الكوفة، توفي عام 32هـ - 653م، ينظر الأعلام 137/4

(2) رواه الإمام مسلم، مسلم بن الحجاج أبوالحسن القشيري النيسابوري، " صحيح مسلم "، ت، محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 8، 44 حديث رقم 6893 باب كيفية خلق الأدمي في بطن أمه.

(3) دلائل الإعجاز العلمي في القرآن، ص 97.

وقد وردت هذه المرحلة بلفظ المفرد هنا، في حين أنها وردت جمعا في سورة سميت باسمه وهي سورة العلق، ولم ترد جمعا مطلقا إلا في سورة العلق، وقد حاول العلماء أن يبينوا سر هذا الجمع، فذهب الزمخشري[1] إلى أن الكلام عن مجموع الإنسان أي: جنسه؛ لذلك جمعه في سورة العلق فقال – بطريقته التي امتاز بها بطرح سؤال والإجابة عنه من باب التشويق والإثارة-: " فإن قلت: لم قال مِنْ عَلَقٍ على الجمع، وإنما خلق من علقة، كقوله : (مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ)؟ قلت: لأن الإنسان في معنى الجمع، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ (العصر/2").[2]

وتبعه في هذا العلامة أبوالسعود، وزاد عليه سببا آخر، وهو رعاية الفاصلة، فقال: " وإيراده بلفظ الجمع بناء على أن الإنسان في معنى الجمع لمراعاة الفواصل؛ ولعله هو السر في تخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية، مع كون النطفة والتراب أدل منه على كمال القدرة؛ لكونهما أبعد منه بالنسبة إلى الإنسانية".[3]

---

(1) الزمخشري هو: محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخشر (من قرى خوارزم)، وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله. وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفى فيها، أشهر كتبه: الكشاف، في تفسير القرآن، و أساس البلاغة، و المفصل، ومن كتبه المقامات، و الجبال والأمكنة والمياه، والمقدمة، معجم عربي فارسي، مجلدان، و مقدمة الأدب، في اللغة، و الفائق، في غريب الحديث، و المستقصى، في الأمثال، مجلدان، و نوابغ الكلم، و ربيع الأبرار، و المنتقى من شرح شعر المتنبي، للواحدي، و القسطاس، في العروض، و نكت الإعراب في غريب الأعراب، و الأنموذج، اقتضبه من المفصل، و أطواق الذهب، و أعجب العجب في شرح لامية العرب، وله ديوان شعر.وكان معتزلي المذهب، مجاهرا، شديد الإنكار على المتصوفة، أكثر من التشنيع عليهم في الكشاف وغيره "توفي عام 538 ينظر الأعلام للزركلي178/7.

(1) الكشاف 775/4.

(2) الزمخشري، "الكشاف"، 4، 775.

(3) أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، 9، 177.

وهناك ملحظ علمي يوضح ما ذهب إليه البلاغيون من وراء الجمع، وهو أن المراد بالعلق الذي جاء بصيغة الجمع، هو مجموع الحيوانات المنوية التي تعلق بالمني، وهي مرحلة تسبق تخلق النطفة وتحولها إلى علقة، وعلى هذا ففي الجمع معنٍ علمي موافق للكثرة التي قيل بوجودها في الحيوانات المنوية السابحة داخل النطفة، فهي توصف بالعلق لتعلقها بها، إذ كما عرفنا من ذي قبل أن الدفقة الواحدة تحمل نحو مائتي مليون حيوانا منويا يصح أن يطلق على كل واحد منها لفظ العلق، والدليل على صحة هذا الرأي أن الخالق جعل هذا العلق هو مبدأ الخلق في سورة العلق، وعليه فهي مرحلة تسبق النطفة، وإذا صح هذا المراد من العلق في سورة العلق- الذي ورد بصيغة الجمع – غير المراد بالعلق – الذي كثر وروده بصيغة الإفراد – وإن كانا يشتركان في صفة واحدة وهي التشبث والتعلق، فالذي ورد بصيغة الجمع يراد به – والله أعلم – مجموع الحيوانات المنوية التي تحملها الدفقة الواحدة، وهي مرحلة ما قبل التخلق، أما الذي ورد بصيغة المفرد فيراد به مرحلة ما بعد التخلق، وهي وصول حيوان منوي وتخلقه إلى النطفة الأمشاج، ثم تحوله إلى العلقة، وينظر في هذا الإبحاث العلمية التي تثبت هذا المنحى.[1]

المرحلة الرابعة :(المضغة) ودلالتها البلاغية :

وينتقل بنا النظم إلى مرحلة أخرى من مراحل تخلق الجنين وهي المضغة، وكان – أيضا – مدلول الاسم مشتقا من معنى المسمى، فقد استقر رأي العلماء قديما وحديثا على أن المضغة سميت بذلك؛ لكونها قدر ما يمضغ[2] وقد وصفت المضغة هنا بوصفين هما: (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ)، وقد وقف العلماء طويلا حول تفسير هذين الوصفين، وذهبوا مذاهب شتى، فقيل: إن المخلقة هي التي تمت فيها أحوال الخلق بأن كانت ملساء سالمة من العيب أو النقصان، أما غير المخلقة: فهي التي لم تتم فيها أحوال الخلق؛ لذلك ترى الناس متفاوتين في خلقهم، فهناك الجميل، وهناك الدميم، وهناك الطويل، وهناك القصير، وذهب إلى هذا الرأي العلامة الزمخشري، فقال:" والمخلقة: المسواة الملساء من

(1) د، نعمت صدقي، "معجزة القرآن"، ط، عالم الكتب، ص 155.
(2) ينظر ابن منظور، " لسان العرب"، مادة (مضغ)، وينظر الراغب، "مفردات ألفاظ القرآن"، 2، 378، وينظر الزمخشري، "الكشاف "، 3، 143.

النقصان والعيب، يقال: خلق السواك والعود، إذا سواه وملسه، من قولهم : صخرة خلقاء، وإذا كانت ملساة، كأنّ الله - تعالى - يخلق المضغ متفاوتة: منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك؛ فيتبع ذلك التفاوت، تفاوت الناس في خلقهم وصورهم، وطولهم وقصرهم، وتمامهم ونقصانهم".[1]

وذهب آخرون إلى أن المراد بالمخلقة: الولد الذي يخرج حيا، وغير المخلقة: السقط، نقل هذا الرأي أبوحيان في بحره عن مجاهد[2]، وقتادة،[3] وأبو العالية[4]، فقال:" وقال مجاهد: (وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) هي التي تستسقط، وقاله قتادة، والشعبي،[5] وأبو العالية".[1]

---

(1) الزمخشري، "الكشاف"، 3، 144.

(2) مجاهد هو: مجاهد بن جبير، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم: تابعي، مفسر من أهل مكة. قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين. أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات، أما كتابه في " التفسير " فيتقيه المفسرون، وسئل الأعمش عن ذلك، فقال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب، يعني النصارى واليهود. ويقال: إنه مات وهو ساجد عام104ه"الأعلام278/5.

(3) وقتادة هو: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري: مفسر حافظ ضرير أكمه.قال الإمام أحمد ابن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة. وكان مع علمه بالحديث، رأسا في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب. وكان يرى القدر، وقد يدلس في الحديث. مات بواسط في الطاعون عام 118 هـ" الأعلام189/5

(4) أبو العالية هو: رفيع بن مهران الرياحي مولاهم البصري المقرئ المفسر، دخل على أبي بكر، وقرأ القرآن على أبيّ، وكان ابن عباس يرفعه على السرير وقريش أسفل، وقال أبو بكر بن أبي داود ليس بعد الصحابة أحد أعلم بالقرآن من أبي العالية وبعده سعيد بن جبير، قال ابن قتيبة حج أبو العالية ستين حجة، وقال الأصمعي كان أبو العالية ومكحول جميلين يعني مكحول الأزدي، وكان مَزَّاحا، قال مسلم بن إبراهيم: سألت أبا العالية عن قتل الذر، فجمع منهن شيئا كثيرا، وقال: مساكين ما أكيسهن، ثم قتلهن وضحك، توفي عام 90هـ ينظر شذرات الذهب 102/1، للعكري الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط - الناشر دار بن كثير _ دمشق - 1406هـ.

(5) الشعبي هو: عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي الحميري، أبو عمرو: راوية، من التابعين، يضرب المثل بحفظه. ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة.. وكان ضئيلا نحيفا، ولد لسبعة أشهر. وسئل عما بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سوداء في

وعند التدقيق في وصفي المضغة نلحظ أنهما وصفان متلازمان لكل مضغة، وأنهما مرحلتان من مراحل تطور الجنين في بطن أمه، فأولا يكون مضغة غير مخلقة وغير واضحة المعالم والتضاريس، ثم بعد ذلك تتشكل وتتكون وتظهر فيها معالم الجنين وأعضاؤه، وقد ذهب إلى هذا الرأي صاحب محاسن التأويل فقال:" (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) أي مصورة وغير مصورة، والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً"،(2) وتبعه في هذا الرأي الطاهر ابن عاشور، بيدا أنه كان أكثر تفصيلا فقال:" (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) صفة (مُضْغَةٍ) . وذلك تطور من تطورات المضغة، إشارة إلى أطوار تشكل تلك المضغة فإنها في أول أمرها تكون غير مخلقة، أي غير ظاهر فيها شكل الخلقة، ثم تكون مخلقة، والمراد تشكيل الوجه ثم الأطراف؛ ولذلك لم يذكر مثل هذين الوصفين عند ذكر النطفة والعلقة؛ إذ ليس لهما مثل هذين الوصفين بخلاف المضغة، وإذ قد جعلت المضغة من مبادئ الخلق تعين أن كلا الوصفين لازمان للمضغة، فلا يستقيم تفسير من فسر غير المخلقة بأنها التي لم يكمل خلقها فسقطت".(3)

وأنا أميل إلى الرأي الآخير القائل بأن الوصفين للمضغة متلازمان، وأنهما مرحلتان من مراحل الجنين؛ إذ إن نظم الآية من أولها يتحدث عن تلك المراحل، كما أنها سيقت للتدليل على إمكان البعث، فالذي يحول الشيء الميت إلى حي تدب فيه الروح، قادر على إحياء الميت بعد الموت، كما أن السقط الذي نزل بعد التخليق يكون كامل الأعضاء مكتمل الأركان، فكيف يوصف بعدم التخليق، والمشاهدة تثبت غير ذلك، كما أن ذلك ما يؤيده علم الأجنة حديثا.(4)

بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته. وهو من رجال الحديث الثقات، توفي عام 103هـ "الأعلام3/251

(1) أبوحيان، "البحر المحيط"، 6، 327.

(2) القاسمي، جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، "محاسن التأويل"، ط، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1376هـ، 4، 343.

(3) الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، 17، 144، 145.

(4) ينظر في ذلك، محمد كامل عبد الصمد، " الإعجازالعلمي في القرآن"، ص 205، 207.

ولكن قد يعكر صفو هذا الرأي أن النطفة غير المخلقة ذكرت قبل المخلقة، فلو كان ما ذُكر صوابا لقال في غير القرآن: من نطفة غير مخلقة ومخلقة؛ ليكتمل الترتيب، الرد على ذلك أنه" قدم ذكر المخلقة على ذكر غير المخلقة خلاف الترتيب في الوجود؛ لأن المخلقة أدخل في الاستدلال، وذكر بعده غير المخلقة؛ لأنه إكمال للدليل، وتنبيه على أن تخليقها نشأ عن عدم، فكلا الحالين دليل على القدرة على الإنشاء، وهو المقصود من الكلام".[1]

واختص النظم مادة التخليق بالذكر، لوصف الفعل من خلال الاسم؛ إذ التخليق" صيغة تدل على تكرير الفعل، أي خلقا بعد خلق، أي شكلا بعد شكل".[2]

وكذلك حسن تضعيف الصيغة بأن جاءت بالتشديد؛ للدلالة على تعدد الأعضاء، قال أبو حيان:" ولما كان الإنسان فيه أعضاء متباينة، وكل واحد منها مختص بخلق، حسن تضعيف الفعل؛ لأن فيه خلقاً كثيرة".[3]

---

(1) الطاهر بن عاشور، "التحريروالتنوير"، 17، 145.
(2) المصدر السابق.
(3) أبوحيان، "البحرالمحيط"، 6، 327.

النكتة في إيراد الجملة الاعتراضية في الآية:

وجاء بالجملة الاعتراضية[1] :(لِنُبَيِّنَ لَكُمْ) بين مراحل تخلق الجنين؛ لإثارة الأذهان، وصرفها إلى التدبر في تلك المراحل التي يغيب أكثرها عن أنظار المخاطبين، فهو سبحانه لم يذكر تلك المراحل إلا بسبب أن يبين لنا ما غاب عنا في الظلمات الثلاث، قال الزمخشري موضحا فائدة الجملة الاعتراضية:" (لِنُبَيِّنَ لَكُمْ) بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا، ثم من نطفة ثانيا، ولا تناسب بين الماء والتراب، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظاما، قدر على إعادة ما أبدأه، بل هذا أدخل في القدرة من تلك، وأهون في القياس".[2]

وقدم علة التبين على غيرها من العلل التي ستذكر بعد، كعلة الإخراج، وعلة بلوغ الأشد وغيرهما؛ لأنها علة العلل التي من أجلها سيقت تلك الأدلة؛ ليستبين للمنكرين قدرة الله على إحياء الموتى؛ لذا قال الإمام أبو السعود – رحمه الله-:" وتقديم التبيين على ما بعده، مع أن حصوله بالفعل بعد الكل؛ للإيذان بأنه غاية الغايات، ومقصود بالذات".[3]

السر البلاغي في حذف المفعول:

وحذف مفعول التبين للتعميم والتفخيم؛ ولكي تذهب فيه نفس المخاطب كل مذهب،"وإعلاما بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الذكر، ولا يحيط به الوصف".[4]

---

(1) الاعتراض هو: "أن يؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى، بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة"، ينظر الخطيب القزويني، جلال الدين أبوعبدالله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني، "الإيضاح في علوم البلاغة"، الناشر، دار إحياء العلوم، بيروت، 1418هـ، 1998م، 1، 194.

(2) الزمخشري، **"الكشاف"**، 3، 144.

(3) أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، 6، 94.

(4) المصدر السابق، وينظر الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، 17، 145.

وفي هذا الحذف –أيضا- تأكيد على سهولة البعث عليه سبحانه، وإمكان جمع أجزاء الإنسان بعد الموت، فالذي خلقهم بهذه الدقة، قادر على إعادة الخلق، وهو أهون عليه؛ إذ الإعادة أسهل من البداءة، وإن كان الكل أهون عليه وأسهل.

إيثار الفعل المضارع (نقر):

وجملة: (وَنُقِرُّ) عطف على جملة: (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ)، وعدل عن فعل المضي إلى المضارع؛ "للدلالة على استحضار تلك الحالة لما فيها من مشابهة استقرار الأجساد في الأجداث، ثم إخراجها منها بالبعث، كما يخرج الطفل من قرارة الرحم، مع تفاوت القرار، فمن الأجنة ما يبقى ستة أشهر، ومنها ما يزيد على ذلك"[1]؛ وللدلالة على تجدد الإقرار وتكرره في الأجنة كلها جنين بعد جنين، فالجملة إخبار بمدة القرار المتفاوتة في الأرحام، وتقديم الجار والمجرور (فِي الْأَرْحامِ) للتنبه على أنه تعالى الخالق الموجد للأرحام، وأن هذا الإقرار لا يتجاوز هذا إمكان المحكم المهيأ لقرار الجنين، كأنه حصن حصين، مما يؤكد طلاقة القدرة وإمكان البعث.

السر البلاغي في ذكر (ما نشاء) دون (من نشاء):

واستعمل (ما نشاء) بدلا مِنْ مَنْ نشاء؛ لأن (ما) كما يقول النحاة: اسم مبهم في غاية الإبهام، فلا يعلم مدة قرار الجنين في الرحم إلا الله – سبحانه وتعالى- "بأنه يقرّ فِي الْأَرْحامِ ما يشاءُ أن يقرّه من ذلك إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى، وهو وقت الوضع آخر ستة أشهر، أو تسعة، أو سنتين، أو أربع، أو كما شاء وقدّر".[2]

وتنكير (أجل) و (مسمى)؛ لبيان تفاوت الإقرار في الأرحام وإبهامه وعدم علم المخاطبين، فلا يعلم وقت خروج الجنين ونهاية أجله في الرحم إلا الله تعالى.

---

(1) الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، 17، 145.
(2) الزمخشري، "الكشاف"، 3، 144.

وجاء بحرف المهلة (ثم) في قوله : (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا) للترتيب والتراخي الزمني، فمرحلة إخراج الأجنة تتلو الإقرار في الأرحام، ولكن بعد فترة من الزمن، وكما هو معلوم بأن حرف المهلة كما جاء للتراخي في الزمن، لا يمنع اعتباره للتراخي في المرتبة؛ إذ مرتبة الإخراج أعلى من مرتبة الإقرار في الأرحام، فلا ضير في ذلك فالعلل البلاغية تتكامل ولا تتعارض.

وجاء بفعل الإخراج مضارعا؛ للدلالة على تجدده مع كل مولود يولد، واستحضاره في أذهان المخاطبين عامة، والمنكرين للبعث خاصة، تلاقيا مع سياق البعث الذي هو المقصود الرئيس؛ لسوق هذه الأدلة الدامغة على إمكان وقوعه.

وأفرد كلمة (طفلا) لمزيد الانتباه، وتذكير المنكر بالبعث بضعفه واحتياجه للآخرين، كما أنها تأتي بهذه الصيغة في القرآن؛ لتعبر عن المفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث.

وقد يقال: لم جاءت مفردة تارة، وجمع تارة أخرى في القرآن؟ والرد على ذلك أنها تأتي جمعا إذا "أراد أشخاصا متعددوا الإحساس والمواقف بالنسبة إلى الجنس والزينة، فكل واحد له إحساس خاص به[1]، أما الأشخاص الذين لم يظهروا على عورات النساء[2] – وكذلك الأطفال حديثي الولادة – فموقفهم واحد متجانس وهو عدم التمييز، فكأنهم شخص واحد لا تمايز بينهم، فأفردهم وجعلهم كأنهم شخص واحد[3]، فالآيات تتكلم عن خلق الجنس، وليس عن خلق الأفراد، فكل الجنس جاء من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة؛ لذا جاءت كلمة طفل، أما قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ (النور/59)، بكلمة الأطفال – جمع- فهنا السياق مبني على علاقات الأفراد، وليس على الجنس؛ لأن الأطفال لما يبلغوا ينظرون إلى النساء كل واحد نظرة

---

(1) كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ (النور/59).

(2) كما في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ (النور/31).

(3) السامرائي، فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ط- شركة العاتك لصناعة الكتاب –القاهرة – الطبعة الثانية 1427هـ - 2006م، ص 92-93.

مختلفة، فلا يعود التعاطي معهم كجنس يصلح في الحكم، فقال: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ (النور/58)، فاقتضى الجمع هنا

وجاءت نكرة للإشارة إلى ضعف المولود بعد الولادة، وصغر جسمه، وضعف حواسه، وشدة احتياجه إلى غيره لقضاء أبسط حوائجه، وفي هذا التنكير تذكير للمتكبرين والكفار ومنكري البعث بمرحلة الضعف التي عاشها الجميع ولا يستطيع إنكارها البتة.

الأسرار البلاغية في مراحل ما بعد تخلق الجنين:

ثم ينتقل بنا النظم سريعا من مرحلة الضعف والطفولة إلى مرحلة الشباب والأشد، وهي مرحلة القوة والفتوة التي تبدأ من سن الأربعين كما عبر الراغب" وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ (الأحقاف/15)، ففيه تنبيه أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى خلقه الذي هو عليه، فلا يكاد يزايله بعد ذلك".[1]

"وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدّة، والقيود، والأباطيل وغير ذلك، وكأنها شدّة في غير شيء واحد، فبنيت لذلك على لفظ الجمع"[2] أي كأنه شدة في الأعضاء وشدة في العقل وشدة في السمع وشدة في البصر، فهي ليست شدة واحدة بل مجموعة؛ لأجل ذلك جاء على صيغة الجمع، وقيل: إنه جاء على صيغة الجمع لأنه ليس له مفرد من لفظه، ورد على هذا الرأي أبوحيان في بحره قائلا:" وإن من الناس من قال إنه جمع شدة، كأنعم جمع نعمة، وأما القيود : فعن أبي عمرو الشيباني إن واحدة قيد"[3] بيد أن طعن أبي حيان لم يسلم من الطعن عليه إذ أورد الآلوسي الرد قائلا:" مع أن فعلة لا

(1) الراغب، "مفردات ألفاظ القرآن"، 1، 528، مادة (شد).
(2) الزمخشري، "الكشاف"، 3، 146.
(3) أبو حيان، "البحر المحيط"، 6، 346.

تجمع على أفعل أي قياسا، فلا يرد نعمة وأنعم، أو شد، ككلب وأكلب، أو شد كذئب وأذؤب، وما هما بمسموعين بل قياسين".[1]

(1) الآلوسي، "روح المعاني"، 9، 113.

النكتة في إيراد لام التعليل في مرحلة الأشد:

وجاء باللام التعليل هنا بخلاف المرحلتين السابقتن: وهما قرار الأرحام وإخراج الأطفال؛ للفت الانتباه إلى هذه المرحلة المهمة في حياة البشر حيث تتجاذبهم الشياطين والشهوات والشبهات، للاهتمام بهذه المرحلة، وكأنها المقصد الأساسي لخروج الإنسان من مرحلة العدم إلى مرحلة الوجود، قال العلامة الشهاب:" أعاد فيه اللام، وإن صح عطفه على ما قبله على قراءة النصب؛ إشارة إلى أنّ المقصود الأصلي من خلقهم أطواراً البلوغ إلى حد من التكليف ينالون به المفازة، وقال الطيبي: إن معلله محذوف أي: كان ذلك الإقرار والإخراج لتبلغوا إلى هذه الحال، التي هي أشرف الأحوال؛ لأنها المقصودة من الإخراج من ظلمات العدم إلى أنوار الوجود".[1]

ونلحظ – أيضا- أن المراحل السابقة أسندت ضمائرها إلى الله – سبحانه وتعالى- مثل: (خلقناكم)و(لنبين لكم)و (نخرجكم) و(نقر)، وعندما جاء إلى مرحلة الأشد، أسند الضمير إلى المخاطبين – مع أنه لم يبلغ الأشد إلا بإذن من الله - عز وجل-؛ وذلك لبيان مرحلة الاستقلال في اتخاذ القرار، وأن ما يفعله في تلك المرحلة يحاسب عليه؛ إذ له قوة في البنيان، ورجاحة في العقل، فهو مسئول مسئولية كاملة عما يقول ويفعل،بخلاف مرحلتي الإقرار في الأرحام والطفولة، وقد أشار أبو السعود إلى سبب آخر قائلا:"وإيثار البلوغ مسندا إلى المخاطبين على التبليغ مسندا إليه تعالى كالأفعال السابقة؛ لأنه المناسب لبيان حال اتصافهم بالكمال، واستقلالهم بمبدئية الآثار والأفعال".[2]

النكات البلاغية في آخر مراحل الإنسان في الآية:

وانتقل النظم بنا إلى آخر مراحل الإنسان في الحياة، وهي الوفاة وانقضاء الأجل، و(مِنْ) في قوله (مِنْكُم) ابتدائية، وقدم هذه المرحلة على مرحلة أرذل العمر، لأنهما متلازمتان، فليس بعد مرحلة الرد إلى أرذل العمر إلا الموت، وفيه إشارة إلى أن الإنسان في مرحلة الأرذلية هو والميت سواء؛ إذ لا يشعر

---

(1) الشهاب الخفاجي، "حاشية الشهاب الخفاجي "، 6، 282.
(2) أبو السعود "إرشاد العقل السليم" 6، 94

بمرور الزمن، ولا يفقه شيئا من الأشياء، فأقرب شيء ينتظره في هذه المرحلة هو الموت، وفي هذا التقديم – أيضا- تنبيه على أن الوفاة ليس لها سن معين، بل قد تأتي في مرحلة الشباب أو قبلها أو بعدها، فلا ينبغي للإنسان أن يغتر بشبابه وقوته، لذا جاء بالوفاة بين مراحل العمر وليس في آخرها.

"وقرىء (يَتَوَفَّى) بفتح الياء أي يُسْتَوْفَى أجله"[1] أو يتوفاه الله، وعلى هذه القراءة الآية فيها التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لإثارة نفوس منكري البعث،وتوجيه أنظار الجميع إلى أن الموت نتيجة حتمية لكل حي، وأنه الحقيقة الوحيدة التي اتفق عليها الجميع، أو لا يستطيع أن ينكرها منكر؛ لذا جاءت على صيغة المبني للمجهول في قراءة الجمهور؛ لأن الفاعل الحقيقي للوفاة معلوم لدى الجميع.

ثم انتقلت بنا الآيات إلى آخر مراحل العمر وأصعبها على الإنسان، وهي الرد إلى أرذل العمر، و" الرَّذْلُ والرُّذَالُ: المرغوب عنه لرداءته"[2]، وأرذل العمر هو آخره الذي يضعف فيه الإنسان بعد قوة، يخرف بعد عقل، وتقل حواسه بعد تمامها؛ لذا عبر النظم بالرد دون الوصول أو البلوغ؛ للإيذان بالوصول إلى مرحلة الضعف؛ ولبيان رده إلى مرحلة الطفولة، بيد أن مرحلة الطفولة لم توصف بالأرذلية، مع أن الإنسان فيه يكون ضعيفا ولم تكتمل حواسه، ولا يفرق بين النافع والضار؛ قال العلامة ابن عطية:" وخص ذلك بالرذيلة، وإن كانت حال الطفولية كذلك، من حيث كانت هذه لا رجاء معها، والطفولية إنما هي بدأة والرجاء معها متمكن ".[3]

ومن في قوله: (وَمِنْكُم مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) تبعيضية، فليس كل الناس يردون إلى أرذل العمر، فمنهم من يموت قبل تلك المرحلة "وقد نرى من علت سنه وقارب المائة أو بلغها في غاية جودة الذهن والإدراك مع قوة ونشاط، ونرى من هو في سن الاكتهال وقد ضعفت بنيته، أوضح تعالى أنه

---

(1) أبو حيان "البحر المحيط"6، 346

(2) الراغب "مفردات ألفاظ القرآن"1، 351 مادة (رذل)

(3) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، "المحرر الوجيزفي تفسير الكتاب العزيز"، ت، عبد السلام عبد الشافي، ط، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى عام 1413هـ، 1993م، 3، 409

قادر على إنهائه إلى حالة الخرف، كما أنه كان قادراً على تدريجه إلى حالة التمام، فكذلك هو قادر على إعادة الأجساد ".[1]

وعدل النظم عن إسناد الفعل إلى الله في هذه المرحلة فلم يقل ومنكم من نرده إلى أرذل العمر، حتى لا ينسب الشيء المشين إلى ذاته، بخلاف الإخراج، إذ هو أبدعها، والرد إلى أرذل العمر أسوؤها "وتغيير العبارة لذلك، ومن ثم نسب الإخراج إلى ذاته تعالى المقدسة، وحذف المعلل في الثاني، ولم ينسب الثالث إلى فاعله، وسلب فيه ما أثبت للإنسان في تلك الحالة من اتصافه بالعلم والقدرة المؤمي إليه بالأشد،كأنه قيل: ثم يخرجكم من تلك الأطوار الخسيسة طفلا إنشاء غريبا".[2]

ثم بين العلة والسبب من هذا الرد وهو:(لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)، ونلحظ أن(لِكَيْلا) جاءت هنا موصولة بينما في آيات أخرى تأتي مفصولة هكذا لكي لا "يبدو في هذا الرسم ملحظ بياني- والله أعلم- في أكثر من موطن، فمرة تكتب (لكي لا) مفصولة، ومرة (لكيلا) موصولة. وأقول أن هذا ليس فقط للخط، وإنما لأمر بياني هو من حيث المعنى (لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ) تحتمل الزمن الطويل والوصل، أما قوله لكيلا يعلم من بعد علم فهي مباشرة بعد العلم، فلمّا احتمل الفاصل فصل (لكي لا)، وعندما وصل بينهما وصل (لكيلا)".[3]

---

(1) أبو حيان "البحر المحيط"6، 346
(2) الآلوسي "روح المعاني" 9، 114
(3) لمسات بيانية 1، 68

الفروق البلاغية بين (من بعد علم) وبين (بعد علم):

وجاءت هنا في الحج بـ(مِنْ) بخلاف سورة النحل جاءت بدون (مِنْ) مما جعل الغرناطي يحكم بزيادتها في سورة الحج للتناسب والتشاكل، فقال:" للسائل أن يسأل عن زيادة (مِنْ) في قوله : (مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا)، وسقوطها من آية النحل مع اتحاد المعنى، هل ذلك لسبب حامل يقتضي زيادتها هنا وسقوطها هناك؟

والجواب : أن سبب ذلك - والله أعلم- التناسب وتشاكل النظم ومراعاة اللفظ، ألا ترى إلى تكرر (من) في قوله : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ...) فقد تكررت لفظة (من) هذه في هذه الآية في ستة مواضع، الخمسة منها قبل قوله : (مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) والواحدة بعدها، وكلها محرزة معناها الذي جيء بها من أجله إلا التي في قوله : (من بعد) إذ النظم مع سقوطها ملتئم، والمعنى تام، فاستوى وجودها وعدمها، فاستدعاها سياق آية الحج للتشاكل والتناسب في النظم، ولم يكن في آية النحل ما يستدعيها؛ إذ لم يرد ما يقتضيها، فورد كل على ما يجب ويناسب، ولا يمكن العكس ".[1]

وهذا الذي ذهب إليه الغرناطي[2] فيه نظر، فـ (من) هنا ليست زائدة، بل جاءت لتؤسس معنى جديدا، وهو نفي العلم عنه البتة، فآية الحج تتحدث عن مرحلة النسيان الكامل التى تشبه مرحلة الطفولة؛ لذا جاءت (من) لتنفي عنه كثير العلم وقليله، أما آية النحل فتتحدث عن مرحلة الكبر التى ينسى فيها

---

(1) الغرناطي، أبوجعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، "ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل"، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1427هـ، 2006م، 3، 302.

(2) الغرناطي هو: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر: محدث مؤرخ، من أبناء العرب الداخلين إلى الاندلس. انتهت إليه الرياسة بها في العربية، ورواية الحديث والتفسير والاصول. ولد في جيان، وأقام بمالقة، فحدثت له فيها شؤون ومنغصات، فغادرها إلى غرناطة فطاب بها عيشه، وأكمل ما شرع فيه من مصنفاته. وتوفي فيها. من كتبه (صلة الصلة). وله (ملاك التأويل في المتشابه اللفظ في التنزيل) و (البرهان في ترتيب سور القرآن) و (الأعلام بمن ختم به القطر الأندلسي من الأعلام) = =(معجم) جمع فيه أسماء شيوخه وتراجمهم. قال ابن حجر: كانت له مع ملوك عصره وقائع، وكانت بينه وبين أميري مالقة وغرناطة صداقة، وكان معظما عند الخاصة والعامة توفي 708هـ - 1308م ينظر الأعلام 86/1

الإنسان أشياء ولكنه يتذكر أخرى؛ لذا حذفت (من) لعدم الإيغال في النفي، ويؤكد ذلك ما ذهب إليه ابن عطية في آية النحل" ليصير أمره بعد العلم بالأشياء إلى أن لا يعلم شيئا، وهذه عبارة عن قلة علمه، لا أنه لا يعلم شيئا ألبتة ".[1]

تنكير (علم) و (شيئا):

وتنكير كلمة (علم) للتكثير والتفخيم، أما تنكير (شيئا) يفيد العموم؛ فالنكرة في سياق النفي تفيد العموم، فهي تنفي أن يتعلم في هذه المرحلة أي شيء، يقول الشيخ ابن عاشور:" لكيلا يعلم من بعد علم أي علم كثير، (شيئا) أي شيئا من الأشياء، أو شيئا من العلم، مبالغة في انتفاص علمه، وانتكاس حاله؛ أي ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفولية من ضعف البنية، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه، وينكر ما عرفه، ويعجز عما قدر عليه، وفيه من التنبيه على صحة البعث مالا يخفى".[2]

الاستعارة وأثرها البلاغي في قوله : (ترى الأرض هامدة):

وبعد سوق هذه البراهين على إمكان البعث، وصرف أنظار المخلوقين إلى أن يفتشوا في أنفسهم؛ ليصلوا إلى هذه الحقيقة، ساق إليهم برهانا آخر لا تخطئه الأبصار، وهو حال الأرض القاحلة التي ينزل عليها الماء فتخضر بعد يبس، وتنبت بعد قحط، ويكثر الاستدلال الحسي في القرآن؛ ليقرب البعيد، وليقنع البليد؛ وليكون أعون على التسليم، وبدأ هذا البرهان بالفعل المضارع(ترى) لاستحضار صورة الأرض في الأذهان، وهي يابسة قاحلة، ثم تحولها إلى مزدهرة مخضرة، فالذي حولها من الضد إلى الضد، قادر على إحياء الميت بعد إذ رمم، ووصف الأرض بالهمود بالاهتزاز استعارة"؛ لأن المراد هاهنا باهتزاز الأرض- والله أعلم - تشبيهها بالحيوان الذي همد بعد حراكه، وخشع بعد تطالّه وإشرافه؛ لعلّة طرأت عليه، فأصارته إلى ذلك، ثم

---

(1) ابن عطية، "المحرر الوجيز"، 3، 410.
(2) الطاهر بن عاشور، "التحريروالتنوير"، 17، 147.

أفاق من تلك الغمرة، وصحا من تلك السّكرة، فتحرك بعد همومه، واستهب[1] بعد ركوده، وكذلك حال الأرض إذا أماتها الجدب، وأهمدها المحل، ثم حالها إذا نضحها الغيث بسجاله، وبلّها القطر ببلاله، واهتزت بالنبات ناضرة، ورطبت بعد الجفوف متزيلة، ذلك تقدير العزيز العليم"[2]. وفي تمثيل الشيء المعنوي بشيء ظاهر محسوس ما يجعلها تكون أشد استقرارا في النفوس، فتثبت ولا تنسى، ولا يستطيع منكر إنكارها.

المبحث الثاني

(1) استهب بمعنى أفاق.

(2) الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن، الرضي العلوي الحسيني الموسوي، "تلخيص البيان في مجازات القرآن"، تحقيق، محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1972م، ص 235، 136.

التحليل البلاغي لآيات سورة(المؤمنون)

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة المؤمنون12-13-14).

بعد أن ذكر الله صفات المؤمنين المفلحين الذين أعد الله لهم الفردوس، انتقل إلى الحديث عن خلق الإنسان؛ وذلك لما بين فلاح المؤمنين وخلق الإنسان من اتصال وثيق، فالمؤمن المفلح يعرف مراحل خلقه، ويؤمن بما أخبر به الله مما غاب عنه من تلك المراحل، فقد اشتركتا في اثبات أمر واحد وهو" تحقيق الوحدانية، وإبطال الشرك ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه".[1]

الأسرار البلاغية في مفتتح آيات سورة(المؤمنون):

وهذه الآيات القصيرة كأختها الأولى، مصبوغة بصبغة بلاغية؛ لما فيها من الفنون البلاغية العديدة. وهذه أهمها:

(1) الطاهر بن عاشور، "التحريروالتنوير"، 18، 6.

افتتاحها بالأسلوب الخبري:

وقد افتتحت الآيات بالأسلوب الخبري، بخلاف سورة الحج التي افتتحت بالأسلوب الإنشائي- وهو النداء على مجموع الناس- وهنا افتتحت بأسلوب القسم الذي أنبأت عنه اللام الموطئة للقسم في قوله:(ولقد)، وجاءت الجملة محملة بأدوات التوكيد، وهي القسم، و قد، واسمية الجملة، مع أن الخطاب موجه للمؤمنين غير المنكرين للبعث أو الخلق، فجاء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لسر بلاغي وهو التعريض بالمشركين المنكرين للبعث والخلق؛ ولأن الله تعالى يعلم أن قضية الخلق والبعث محل جدال ونقاش؛ لأنهما لا يراهما الإنسان، ولم يتعرف عليهما إلا من خلال الخبر الصادق عن رب العزة أو عن النبي الأمين، وقد ذهب العلامة ابن عاشور إلى الأول قائلا:" وتأكيد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق مراعى فيه التعريض بالمشركين المنزلين منزلة من ينكر هذا الخبر؛ لعدم جريهم على موجب العلم"[1] والتعريض من أقوي الأساليب البلاغية، لما فيه من إقناع الخصم وإلجامه بأحسن السبل وأقومها، فهو طريقة لقرع أذهان الخصوم ودعوة – من طرف خفي – لتصحيح أوضاعهم بالرجوع إلى الحق دون تشهير أو تجريح.

النكتة البلاغية في الوصل :

وَوُصِلَت هذه الجملة بحرف العطف الواو على مفتتح السورة، وهو من عطف قصة على قصة، أو غرض على غرض، فقد عطف قضية خلق الإنسان، على قضية فلاح المؤمنين؛ لما بينهما من اتفاق في الخبرية، وكذلك اشتراك في الحكم، وهو ما يسميه البلاغيون التوسط بين الكمالين، وفي ذلك استدلال على انفراد الله بالخلق، وبيان أن العلة التي خلق من أجلها الإنسان هي الاتصاف بالفلاح، والتحلي بصفات المؤمنين التي ذكرت في مفتتح السورة، بيد أنه قدم العلة على المعلول؛ لشرفها وعلو مكانتها.

السر البلاغي في إيثار الماضي في قوله :(خلقنا):

(1) المصدر السابق، 18، 19.

وعبر النظم عن خلق الإنسان بالفعل الماضي(**خلقنا**)؛ لبيان تحقق الوقوع، وذلك إذا كان المراد منه خلق الذرية؛ لأن بعضهم خلق والآخر لم يخلق، فعبر بالماضي؛ لتحقق وقوع الخلق لمن لم يخلق وقت نزول الآية، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أما إذا أراد بالمخلوق آدم – عليه السلام – فالفعل الماضي على حقيقته.

وقد اسند فعل الخلق إلى ضمير العظمة؛ لتعظيم الخالق، وتكريم المخلوق؛ ولبيان أن قضية الخلق هي مما استأثر به الله – تعالى- وعجز عنه غيره.

النكتة في التعبير بالخلق دون ما يرادفه من أفعال:

وعبر بفعل الخلق دون غيره من الجعل والإنشاء والإيجاد؛ لأنه يحمل المعاني السابقة ويزيد عليها التقدير كما قال الزمخشري في الأساس:" خلق الخرّاز الأديم، والخيّاط الثوب: قدّره قبل القطع، واخلق لي هذا الثوب. وصخرة خلقاء: ملساء. وخلق الثوب خلوقة، واخلولق، وأخلق. وأخلقت الثوب: لبسته حتى بلي، وثوب خلق وملاءة خلق، وجاء في أخلاق الثياب وخلقانها. وخلّق القدح: ملسه، يكون نضباً أولاً فإذا بريَ وملّس فهو مخلّق، وهذا رجل ليس له خلاق أي حظ من الخير. وخلقه بالخلوق فتخلق.ومن المجاز: خلق الله الخلق: أوجده على تقدير أوجبته الحكمة".[1]

دلالة (أل) البلاغية في لفظ الإنسان:

و(**أل**) في (**الإنسان**) لتعريف الجنس[2] وهو من الألفاظ التي تطلق على المذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع، المراد بالإنسان هنا آدم – عليه السلام- لأنه هو الذي خلق من طين، وبدأ الحديث به لما فيه من القدرة الباهرة المدللة على إمكان الخلق، فتحول آدم من طين لازب إلى بشر سوي، دعوة

---

(1) الزمخشري، "أساس البلاغة"، تحقيق ونشر، دار الفكر بيروت، سنة النشر 1399هـ 1979م، 1، 122 مادة (خلق).

(2) الطاهر بن عاشور، "التحريروالتنوير"، 18، 19.

للنظر في قدرة الله، أو المراد به ذرية آدم -عليه السلام- كما عرفنا في سورة الحج من أن النطفة أصلها من التراب، وفي ذلك –أيضا- تدليل على قدرة الله وإمكان البعث.

النكتة البلاغية في التعبير بالسلالة:

وانتقل بنا النظم إلى أول مراحل تخلق الجنين، وهي(**من سلالة من طين**)، (**من**) الأولى ابتدائية؛ للإيذان ببدأ قضية الخلق لجذب أنظار المخاطبين للانتباه لهذه القصة العجيبة، والثانية بيانية تبين نوع السلالة وماهيتها.

والسلالة هي خلاصة الشيء؛" لأنها تسلّ من بين الكدر، و(فعالة) بناء للقلة: كالقلامة والقمامة. وعن الحسن : ماء بين ظهراني الطين"[1] فتعتبر هي خلاصة الشيء وعصارته الجيدة، واختلف العلماء في المراد بهذه السلالة، فمنهم من قال:إنها خلاصة الطين الذي خلق منه أبو الذرية آدم – عليه السلام- وفي ذلك تعظيم لقدرة الله الذي خلق من الطين بشرا ذا لحم ودم، ومنهم من ذهب إلى أن المراد بالسلالة ذرية آدم، فالإنسان تخلق من المني ودم الحيض، وهما متولدان من دم العروق، وذلك الدم يتولد من الأغذية التى أصلها التراب، وتزعم هذا الرأي الإمام الرازي قديما، وابن عاشور حديثا، فقال الأخير منهما:" تلك السلالة مخرجة من الطين؛ لأنها من الأغذية التي أصلها من الأرض، ودم المرأة إذا مر على قناة الرحم ترك فيها بويضات دقيقة هي بذر الأجنة، ومن اجتماع تلك المادة الدهنية التي في الأنثيين مع البويضة من البويضات التي في قناة الرحم يتكون الجنين، فلا جرم هو مخلوق من سلالة من طين".[2]

وعلى هذا الرأي يكون السر البلاغي من ذكر السلالة هو التحقير؛ لبيان شأن الإنسان المتكبر والمنكر للبعث، إذ كيف ينسى أصله وخلقه، وينكر قدرة الله التي خلقته من التراب الذي يطأه بقدمه.

---

(1) الزمخشري، " الكشاف" 3، 27.
(2) الطاهر بن عاشور، "التحريروالتنوير"، 18، 19.

السر البلاغي في إيثار حرف التراخي (ثم):

وعطف الطور الثاني وهو النطفة – على رأي من ذهب إلى أن النطفة مخلوقة من التراب- على الطور الأولى وهو الطين بحرف المهلة(**ثم**)؛ ليفيد التبعيد والإعجاز والتراخي، فتحول الطين والتراب إلى مني ونطفة أمرغريب بالنسبة للبشر؛ لتحول المادة إلى مادة أخرى مغايرة لها في الوصف والمكونات، وهذا أهون الأمور على الخالق، وأغربها عند المخلوق، وعبر النظم عن هذه التحول بالجعل دون الخلق؛ لأنه الأنسب بالمقام، فالخلق عما علمنا إنشاء وتقدير من عدم، بخلاف الجعل الذي هو تحويل شيء إلى شيء آخر، فالمادة في الأصل وموجودة ولكنها تحولت إلى شيء آخر منها أو من غيرها؛ لذا قال الراغب في مفرداته ذاكرا معانى الجعل في القرآن وهي خمسة ذكر منها:" والثالث: في إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه"[1] فقد أوجد تعالى النطفة من الطين والتراب، فالجعل هو أن تُغيّر الصيرورة، فنقول: جعلت الخشب كرسيا أي أنه لم يكن كذلك فصار، أما الخلق فهو مرحلة مستقلة عن غيرها، والضمير في قوله:(جعلناه) عائد على الإنسان، وإذا كان المراد بالإنسان آدم -عليه السلام – فالكلام هنا كما قال ابن عاشور[2]: من قبيل الاستخدام[3]، حيث إن لفظ الإنسان يراد به آدم – عليه السلام – ويراد بالضمير العائد عليه ذريته، فهم الذين خلقوا من نطفة، والاستخدام لون من ألوان البديع التي تنشط العقل، وتوجز في الألفاظ.

النكتة في وصف (قرار) بـ (مكين):

وعبر النظم الكريم عن المكان الذي تستقر فيه النطفة بـ(**في قرار مكين**) لما يكون في النطفة من ضعف شديد جعل لها قرارا مكينا يحفظها من السقوط أو غيره عند تحرك المرأة أو نومها أو مشيها، إذ هي في مستقر آمن، وجاء

---

(1) الراغب، " مفردات ألفاظ القرآن"، 1، 184، مادة (جعل).

(2) ينظر الطاهر بن عاشور، "التحريروالتنوير"، 18، 20.

(3) الاستخدام، هو أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما ثم بضميره معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحدهما وبالآخر الآخر، الخطيب القزويني، "الإيضاح في علوم البلاغة"، 1، 332.

حرف الظرفية؛ ليبرز لنا هذه العناية التي تحوط النطفة في رحم المرأة كإحاطة الظرف بمظروفه، فأصبحت في حصن حصين، وجدار متين، والقرار من " قر في مكانه يقر قرارا، إذا ثبت ثبوتا جامدا"[1] وهو مكان استقرار النطفة في رحم المرأة، وتقييد النطفة بقوله (**قرار**) يؤكد العناية بتلك النطفة الضعيفة؛ إذ جعل له ما يحميه ويحوطه، وسمي المكان الذي تستقر فيه النطفة بالقرار؛ مبالغة في وصفه بالحفظ والثبوت والاستقرار والحيطة التامة،فالتعبير بالقرار يدل على أن النطفة بعيدة جدا عن أي مخاطر، مع أنها قريبة جدا من عناية الخالق.

قال الزمخشري في وصف القرار بالمكين:" وصفت –أي الرحم - بالمكانة التي هي صفة المستقرّ فيها، كقولك: طريق سائر" أي أن الكلام من قبيل المجاز العقلي، حيث سمي المكان نفسه بالمكانة، مبالغة في شدة استقرار النطفة في الرحم، فأصبحت الرحم هي مصدر الاستقرار، كما يوصف الطريق بالسائر في حين أنه لا يسير إنما الذي يسير هم السائرون فيه، فإذا كان الطريق نفسه يوصف بالسير، فكيف بمن يسير فيه؟! وإذا كانت الرحم نفسها توصف بالمكانة فكيف بالنطفة الموجودة بداخلها، فهذا يعني أن الوصف لا يتخلى عن موصوفه بحال من الأحوال،" وفي الكشاف وجه آخر وهو أن الرحم نفسها متمكنة فلا تنفصل؛ لثقل حملها أو لا تمج ما فيها، فهو كناية عن جعل النطفة محرزة مصونة".[2]

وهكذا تجمع " هاتان الكلمتان القرآنيتان آيتين عجيبتين في الرحم هما: ثباته ورسوخه؛ ثم قابليته للنمو والاتساع، مما يوفر الاستقرار لهذه النطفة، فضلا عن وضعه الداخلي، وما يحدث فيه من استعدادات؛ كارتفاع سمكه من مليمتر واحد إلى خمسة مليمترات .....ولو كان الرحم غير ثابت في مكانه؛ لتضررت الأم الحامل أثناء حركتها، وصار رحمها عرضة للسقوط والتدلي بما فيه، ولو كان غير قابل للاتساع لضاق بالجنين قبل اكتمال نموه".[3]

---

(1) الراغب الأصفهاني، "مفردات ألفاظ القرآن"، 2، 229، مادة (قر).
(2) الشهاب الخفاجي، "حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي"، 6، 321.
(3) السيد فتحي عبد الشافي، " الحقائق العلمية المعاصرة عن الإنسان والكون في القرآنالكريم "، ص 41، عام 2008.

كما أن الإعجاز البلاغي اقتضى وصف القرار بالمكين دون المتين؛ لأن المتين قد يعني أنه متين في نفسه ولكن لا يستلزم ثبوته في مكانه، ويحتمل أن يصاب الجنين بسب متانته بكسور أو مضاعفات بسبب ما تتعرض له الأم من عوامل خارجية، فلله در كلامه المعجز؛ إذ عبر عن كل هذه الأسرار والأحكام والحقائق العلمية التي اكتشفها العلماء وما زالوا يكتشفون من هذين الكلمتين (**قرار مكين**) وهذا قمة الإيجاز بالقِصَر.

ثم تنتقل الآيات إلى مرحلة أخرى من مراحل الخلق، وهي مرحلة العلقة، وقد وقفنا على الأسرار البلاغية لهذه اللفظة – عند الحديث عن مراحل الخلق في سورة الحج- بيد أن هنا ثمت اختلافا، وهو تكرير النطفة والعلقة والمضغة، والعطف بينهم مرة بالفاء ومرة بـ (ثم).

النكتة في تكرار مراحل التخلق في آيات (المؤمنون):

و(أل) في هذه الألفاظ للعهد الذكري؛ إذ سبق ذكرها، أي المذكورة من قبل، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال، لماذا كررت هذه الألفاظ، فهلا اكتفا بذكرها مرة واحدة مُنَكَّرة مثلما ذكر في سورة الحج؟ أقول : بأن هذا التكرار له فائدة، فقد ذكر كلا منها مكررا للفرق بين الحالتين، فحين ذكر النطفة والعلقة والمضغة مُنكَّرة، فهو يقصد حالة لها بغير التي يقصدها وهي مُعرَّفة، فيذكرها مُنكَّرة في بدايتها، وقبل اكتمال نموها، فهي ما زالت في مرحلة التكوين والضعف الذي يناسبه التنكير، أما عن اكتمال نموها، وقرب انتهاء تلك المرحلة، وهي مرحلة النضج والاكتمال يذكرها بالتعريف الذي يتناسب مع تلك المرحلة، فسبحان من هذا كلامه.

السر البلاغي في تنوع حروف العطف بين مراحل التخلق:

أما عن اختلاف العاطف مرة بالفاء وأخرى بثم فلسر بلاغي، وهو أنه حينما يتحدث عن تحول الخلق من مرحلة إلى مرحلة أرقى من الأولى وأبدع – وذلك يكون في بداية المرحلة- وبينهما مهلة زمنية طويلة يأتي العطف بحرف المهلة، أما حينما يعبر عن تداخل المراحل وتشابكها بحيث تكون نهاية المرحلة الأولى هو بداية للمرحلة التي تليها يكون العطف بحرف التعقيب، وقد أشار ابن

الأثير [1]إلى مثل هذا فقال:" فعطف التقدير على الخلق بالفاء؛ لأنه تابع لهِ، ولم يذكر تفاصيل حال المخلوقِ، وفي هذه الآية ذكر تفاصيل حاله في تنقلهِ، فبدأ بالخلق الأولِ، وهو خلق آدم من طينٍ، ولما عطف عليه الخلق الثاني الذي هو خلق النسل، عطفه بثم؛ لما بينهما التراخيِ، وحيث صار إلى التقدير الذي يتبع بعضه بعضاً من غير تراخ عطفه بالفاءِ، ولما انتهى إلى جعله ذكراً أو أنثى - وهو آخر الخلق - عطفه بثم"[2]

وكذلك كان الزركشي أوضح رأيا وأبين كلاما مما ذهب إليه ابن الأثير فقال:" وأما قوله: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾، فقيل:الفاء في(**فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ**)، وفي(**فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ**) بمعنى ثم لتراخي معطوفها، وقال صاحب البسيط: طول المدة وقصرها بالنسبة إلى وقوع الفعل فيهما، فإن كان الفعل يقتضي زمنا طويلا طالت المهلة، وإن كان في التحقيق وجود الثاني عقيب الأول بلا مهلة، وإن كان الفعل يقتضي زمنا قصيرا ظهر التعقيب بين الفعلين، فالآية واردة على التقدير الأول فلا ينافي معنى الفاء، والحاصل أن المهلة بين الثاني والأول بالنسبة إلى زمن الفعل، وأما بالنسبة إلى الفعل فوجود الثاني عقب الأول من غير مهلة بينهما،

---

(1) ابن الأثير هو: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب: وزير، من العلماء الكتاب المترسلين. ولد في جزيرة ابن عمر، وتعلم بالموصل واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين، وولى الوزارة للملك الأفضل ابن صلاح الدين في دمشق ولم تحمد سياسته، فخرج منها مستخفيا في صندوق مقفل. وتحول إلى الموصل، فكتب الإنشاء لصاحبها محمود بن عز الدين مسعود، فبعثه رسولا في أواخر أيامه إلى الخليفة، فمات ببغداد. كان قوي الحافظة، من محفوظاته شعر أبي تمام والمتنبي والبحتري. ومن تآليفه " المثل السائر في أداب الكاتب والشاعر " و " كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب " و " المفتاح المنشا لحديقة الانشا " و " المعاني المخترعة في صناعة الانشاء، و غيرها، توفي 637هـ- 1239م ينظر الأعلام 31/8

(2) ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، "المثل السائرفي أدب الكاتب و الشاعر"، تحقيق، محمد محيي الدين عبدالحميد، الناشر، المكتبة العصرية، بيروت، 1995، 2، 47.

هذا كله في سورة المؤمنين، وقال في سورة الحج: ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ (الحج/5)، فعطف الكل بـ (ثم)؛ ولهذا قال بعضهم: (ثم) لملاحظة أول زمن المعطوف عليه، والفاء لملاحظة آخره، وبهذا يزول سؤال أن المخبر عنه واحد، وهو مع أحدهما بالفاء وهي للتعقيب، وفي الأخرى بـ(ثم) وهي للمهلة وهما متناقضان".[1]

والمتأمل في نظم آيتي الحج والمؤمنون اللتان تحدثتا عن مراحل الخلق يجد أن كلا منهما جاء متصقا مع الغرض والهدف الذي من أجله سيقت هذه المراحل، فبناء آية الحج على جعل كل مرحلة من هذه المراحل (**تراب – نطفة – علقة – مضغة**) مادة للخلق دون التصريح بتخلقها من الأخرى، بدليل تكرار (**من**) الابتدائية فيها أربع مرات، دون عطف التحولات بالفاء، ودون تنوع الأفعال من جعل وأنشاء وكسا – كما في سورة المؤمنون – مما يشير على أن السياق يخبر أن كل واحدة من هذه المراحل أصلا للمخلوق ومنها منشاءه وابتداءه؛ لأجل ذلك جاءت كلها منكرة، وهذا يناسبه العطف بـ(**ثم**) في سورة الحج، وهذا يتلاقى مع مقصود سياق الآية وسياق السورة وهو الرد على منكري البعث، وأفحامهم بالدليل والبرهان، أما هنا في آية (المؤمنون) فبناؤها أن الإنسان مادتان: الأولى: في خلق آدم من سلالة من طين، والثانية: في خلق الذرية وأطوارها؛ لهذا جاءت النطفة والعلقة والمضغة معرفة بلام العهد، بعد ذكرها منكرة، وصرح فيها بالتحولات والأفعال الدالة على الخلق دون مادة الخلق وهي الجعل والإنشاء والكساء، وذلك يتلاقى مع مقصود سياق الآيات، وهو تذكير المؤمنين بأنعم الله عليهم في خلقهم وهدايتهم؛ ليقدموا الشكر لخالقهم.

ومع تكرار كلمة الخلق مع كل مرحلة من المراحل، فالقارئ لا يشعر بأى ثقل أو ملل، فتكرار كلمة الخلق مع كل مرحلة تدل على أن كل مرحلة هى خلق جديد يختلف عن المرحلة السابقة عليه، فكررت كلمة الخلق؛ لتوحي بالقدرة الباهرة مع كل مرحلة من مراحل تطور الجنين.

---

(1) الزركشي، "البرهان في علوم القرآن"، 4، 296.

النكتة البلاغية في مرحلة كساء العظام باللحم:

ثم تنتقل بنا الآيات إلى بيان مرحلة جديدة من مراحل تخلق الجنين وهي: خلق العظام وكساؤها باللحم، عبر عنه النظم بقوله: (**فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً**)، وفي تنكير العظام أولا ما يدل على كثرتها وتنوعها فهي تشتمل على "عظام غضروفية وهي التي تمتلئ بالعظام تدريجيا، وعظام غشائية وهي التي كانت نسيجا من الغشاء ثم بني عليها العظم دون أن تسبقه مرحلة نشوء الغضاريف"[1]

وقد سبق العلامة الشهاب علماء الطب في هذا المجال حينما علل السبب قائلا:"لأن العظام متغايرة هيئة وصلابة بخلاف غيرها، ألا ترى عظم الساق، وعظم الأصابع، وأطراف الأضلاع.....".[2]

السر البلاغي في مجيء الاستعارة في (كسونا):

والتعبير عن تكامل هيئة الإنسان وتمام خلقه بالفعل (**كَسَوْنَا**) الذي يدل الستر والإحاطة من جميع الجوانب والجهات في غاية الدقة والبراعة؛ إذ إن اللحم يحوط العظام ويغطيها ويسترها كما يستر الثوب لابسه، فالكلام من قبيل الاستعارة التصريحية التي قصد منها تقريب شيء مجهول للبشر بشيء معلوم لهم لتستقر المعاني في النفوس، كما تدل على رعاية الله لخلقه وهم في طيات الظلمات الثلاث، وهذه الاستعارة تدل على ستر لحم الإنسان لعظامه وإحاطتها به من كل اتجاه، فهي تدل- أيضا- على الزينة والجمال، فكما يتخذ الإنسان من ثيابه الزينة والجمال، كذلك يكون كساء العظام باللحم فيه من الجمال ما فيه ويتضح ذلك إذا نظرنا إلى الهياكل العظمية التى لم يتبقى عليها شيء من اللحم بعد موت الإنسان بسنوات تكون صورته مخيفة، ساعدتها نعرف قيمة التعبير عن غطاء اللحم للعظام بالكساء.

---

(1) "خلق الإنسان بين الطب والقرآن"، ص 278، وما بعدها فيه تفصيلات عديدة في هذا الموضوع لا داعي لذكرها ههنا.

(2) الشهاب الخفاجي، "حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي"، 2، 322.

النكات البلاغية في قوله: (ثم أنشأناه خلقا آخر):

وعبر النظم عن المرحلة الأخيرة من مراحل الجنين بعد أن تدب الحياة فيه قائلا: (**ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ**) بحرف المهلة(**ثم**) للتغاير بين الخلقين وليس للتراخي، ونكَّر خلقا ونعته بـ(**آخَرَ**)؛ لتفخيم هذا المخلوق والدلالة على عظمته؛ولبيان الاختلاف بين الخلق الأول والآخر؛ فالأخير قد دبت فيه الحياة، وهي حالة جديدة طرأت على الجنين؛ لذا عبر عنه بالإنشاء، يقول الطاهر بن عاشور:" لأن الخلق المذكور قبله كان دون حياة، ثم نشأ فيه خلق الحياة، وهي حالة أخرى طرأت عليه عبر عنها بالإنشاء؛ وللإشارة إلى التفاوت الرتبي بين الخلقين عطف هذا الإنشاء بـ(ثم)للدلالة على أصل الترتيب في عطف الجمل ".[1]

الأسرار البلاغية في تذييل الآيات:

ختمت الآيات بقوله:(**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**) الفاء التي توحي بالمسارعة والمبادرة بالثناء على الخالق ونعمائه المتتالية على خلقه،وهي هنا سببية، أي بسبب هذا الخلق وتلك الأطوار تبارك الله، فهي نتيجة حتمية ينبغي أن ترددها الألسنة حتى ولو لم تكن في التنزيل لذا" وروى عن عمر- رضى الله عنه- أنّ رسول الله- صلى الله عليه وسلم - لما بلغ قوله خلقا آخر، قال: (**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**). وروى أنّ عبد الله بن سعد بن أبى سرح[2] كان يكتب للنبي - صلى الله عليه وسلم -، فنطق بذلك قبل إملائه، فقال له النبي - صلى الله

---

(1) الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، 18، 21.

(2) عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري، من بني عامر بن لؤي، من قريش: فاتح إفريقية، وفارس بني عامر. من أبطال الصحابة. أسلم قبل فتح مكة، وهو من أهلها. وكان من كتاب الوحي للنبي- ﷺ- وكان على ميمنة عمر وبن العاص حين افتتح مصر. وولي مصر سنة 25 هـ بعد عمر وبن العاص، فاستمر نحو 12 عاما، زحف في خلالها إلى إفريقية بجيش فيه الحسن والحسين ابنا علي، وعبد الله بن عباس، وعقبة بن نافع. ولحق بهم عبد الله بن الزبير. فافتتح ما بين طرابلس الغرب وطنجة، ودانت له إفريقية كلها.، واعتزل الحرب بينه وبين علي (بصفين) ومات بعسقلان فجأة، وهو قائم يصلي. وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاع. وأخباره كثيرة، توفي عام 37هـ، ينظر الأعلام 88/4

عليه وسلم- (**اكتب، هكذا نزلت**) فقال عبد الله : إن كان محمد نبيا يوحى إليه، فأنا نبىّ يوحى إلىّ، فلحق بمكة كافرا، ثم أسلم يوم الفتح".[1]

وتبارك بصيغة تفاعل مشتق من البركة، وهذه الصيغة تدل على زيادة البركة، "وصيغة تفاعل صيغة مطاوعة في الأصل، وأصل المطاوعة قبول أثر الفعل، وتستعمل في لازم ذلك وهو التلبس بمعنى الفعل تلبسا مكينا؛ لأن شأن المطاوعة أن تكون بعد معالجة الفعل؛ فتقتضي ارتساخ معنى الفعل في المفعول القابل له، حتى يصير ذلك المفعول فاعلا فيقال: كسرته فتكسر، فلذلك كان تفاعل إذا جاء بمعنى فعل دالا على المبالغة كما صرح به الرضي [2]في شرح الشافية؛ ولذلك تتفق صيغ المطاوعة وصيغ التكلف غالبا في نحو: تثنى، وتكبر، وتشامخ، وتقاعس. فمعنى تبارك الله أنه موصوف بالعظمة في الخير، أي عظمة ما يقدره من خير للناس وصلاح لهم.

وبهذا الاعتبار تكون الجملة تذييلا؛ لأن تبارك لما حذف متعلقه كان عاما فيشمل عظمة الخير في الخلق وفي غيره".[3]

وأظهر لفظ الجلالة في موضع إضماره؛ لتربية المهابة في قلوبهم،"والإشعار بأنّ ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية، وللإيذان بأنّ من حق كل من سمع ما فصّل من آثار قدرته تعالى أو لاحظه، أن يسارع إلى التكلم به، إجلالا وإعظاما لشئونه تعالى".[4]

---

(1) الزمخشري، "الكشاف"، 3، 178.

(2) الرضي هو: محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن، الرضي العلوي الحسيني الموسوي: أشعر الطالبيين، على كثرة المجيدين فيهم.مولده ووفاته في بغداد. انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده. له ديوان شعر، وكتب، منها الحسن من شعر الحسين، وهو مختارات من شعر ابن الحجاج، ، و المجازات النبوية، و مجاز القرآن باسم: تلخيص البيان في مجازات القرآن، توفي عام 406ه" الأعلام 99/6

(3) الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، 18، 21، 22.

(4) أبوالعباس، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي، "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد "، تحقيق: أحمد عبد الله قرشي رسلان، الناشر، حسن عباس زكى، القاهرة، سنة: 1411هـ، 3، 565.

وعبر بـ(**أحسن**) وهو من أفعال التفضيل – مع العلم بأنه ليس هناك خالق غير الله فيكون بينهما تفاضل – فالتفضيل ليس على بابه، وإنما جيء به؛ لبيان أنه لا يشاركه أحد في هذا الخلق.

وحذف معمول الخالقين؛ للدلالة عليه من السابق؛ ولإفادة العموم ليعم كل خلق على ظهر الأرض سواء أكان إنسانا أم نباتا أم حيوانا أم جنا أم طيرا...إلخ، قال ابن عاشور:" وكذلك حذف متعلق الخالقين يعم خلق الإنسان وخلق غيره كالجبال والسماوات".[1]

وفي هذا التذييل لون بديعي يسميه علماء البلاغة بالتوشيح" ويسمى به؛ لكون نفس الكلام يدل على آخره، نزل المعنى منزلة الوشاح، ونزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح؛ ولهذا قيل فيه: إن الفاصلة تعلم قبل ذكرها، وسماه ابن وكيع المطمع؛ لأن صدره مطمع في عجزه".[2]

(1) الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، 18، 22.
(2) الزركشي، "البرهان في علوم القرآن"، 1، 95.

المبحث الثالث

التحليل البلاغي لسورة غافر

المبحث الثالث

التحليل البلاغي لسورة غافر

سورة غافر وإن كانت آخر السور الثلاث في الترتيب المصحفي، إلا إنها من أول السور الثلاث نزولا؛ لذا فقد اقتصرت على ذكر مرحلتين من أطوار الجنين وهما النطفة والعلقة، وهذا مناسب لسياق الآية ووقت نزولها، فسياق السورة يتحدث عن خلق السماوات والأرض، وخلق الليل والنهار، الحديث عن الذين في صدورهم كبر، وعن الظالمين والمجادلين في آيات الله، وفي ختام السورة ذكر الله هولاء المجادلين بأصل خلقهم وهو التراب، وفي ذلك إشارة إلى أن خلقهم فى البداية من تراب قادر على أن يبعثهم من التراب يوم القيامة، إذ الإعادة أهون من البداية، وإن كان الكل هين عليه سبحانه، واقتصرت الآية على ذكر طورين فقط؛ لأن ذلك متناسب مع المخاطبين أنذاك، فهي من أوائل السورة التي تحدثت مع المعاندين وهذا يتطلب الترقى معهم في الخطاب، فهم لا يعلمون إلا بدايات المراحل فخوطب حسب ما يعرفون، ثم بعد ذلك في السور الأخرى زاد الحديث عن بقية المراحل بعد أن أسلام أكثرهم ولم يبقى إلا أشدهم عنادا؛ لذا نجد الخطاب في آية الحج أشد لهجة، والإكثار من الأدلة والقرآئن، وذكر المزيد من الأطوار؛ ليقلعوا عن كفرهم؛ ويعودوا إلى رشدهم.

تبدأ الآية مباشرة بالمطلوب دون مقدمات من نداء أو استفهام أو غيره بل بدأت بالإخبار عن الخالق بضميره العائد على رب العالمين، وهذه البداية وذلك التقديم يفيدان الاختصاص، فلا خالق إلا هو، ويكثر هذا التقديم في مقامات الحديث عن الخلق والإنشاء والإحياء والإماته، لانفراده سبحانه بها دون تدخل من المخلوقين، ولما كان الإخبار بالخلق أمرا عظيما ناسب ذلك أن يبدأه بأسلوب الفخامة والتعظيم، فأتى بالضمير على ذاته سبحانه مقدما لتتهيأ نفس المخاطب إلى تلقى الخبر ولا سيما إذا كان من الأمور الغيبية، وفي هذا التقديم- أيضا- تشويق ينشط أذهان المخاطبين لتلقى ما يلقى بعده من أخبار وإلهابا لحماسهم.

ونلحظ أن هذه الآية بدأت بالضمير (**هو**) جاء مخالفا لنسق آيات الخلق السابقة عليها؛ إذ بدأت بلفظ الجلالة الصريح[1]"فقد وضع الظاهر فيها موضع المضمر؛ لتكون كل آية مستغنية عما قبلها مستقلة بنفسها، وهذا ليس مرادا هنا؛ لأن المراد هو توثيق هذا البرهان الذي هو مراحل خلق الناس المخاطبين في قوله: (**خلقكم**)، والمخاطبين في قوله: ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (غافر/66)، وهم المعاندون من قومه – عليه السلام- وتوثيق ربط الآية قبله التي توجب الإسلام لرب العالمين، والأن من عقل هذا لا يتردد لحظة في هذا الاستسلام، وهكذا تجد روابط هذا الكلام تأتيه من هنا وهنا، وهذا عجيب؛ لأني لا أرى مناسبة فحسب، وإنما أرى كلاما يمتد من كلام، وأرى معانى تنمو ولغة تنمو"[2]

(1) مثل قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ....) وقوله: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) وقوله: (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً...) غافر الآيات 61-62-64

(2) أبوموسى، آل حم (غافر وفصلت) صـ249

النكته البلاغية من كثرة لامات التعليل

وقفت مع معظم المراحل عند تحليل سورتي الحج والمؤمنون فلا داعي للتكرار إذ إنه آفة البحث العلم، غير أنه هنا أكثر من لامات التعليل في قوله: لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ (غافر/67)، أربع لامات كلها تفيد التعليل، وهذه"واللامات في قوله: (**ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ**) وما عطف عليه بـ(**ثم**) متعلقات بمحذوف تقديره: ثم يبقيكم، أو ثم ينشئكم لتبلغوا أشدكم، وهي لامات التعليل مستعملة في معنى(إلى)؛ لأن الغاية المقدرة من الله تشبه العلة فيما يفضي إليها"[1] وتوحي هذه اللامات بغايات مختلفة تتناسب وأحوال المخاطبين فمنهم من يبلغ الأشد، ومنهم من يعمر حتى الشيخوخة، ومنهم من يموت قبل بلغهما، وجاء بالجملة الاعتراضية في وسط تلك اللامات وهي: (**يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ**)؛ لبيان أن الموت هو النهاية الحتمية لكل المراحل السابقة واللاحقة، بيد أنه جاء ذكر التوفي قبل ذكر مرحلة الشيخوخة إذ" ليس هناك حاجة لذكر الموت بعدها؛ لأنها نهاية المطاف، وهي مقترنة بالموت، وهي زمن مصارع الأمة"[2]

وجاء تذييل الآية الكريمة بالدعوة إلى إعمال العقل والفكر والتدبر في دلائل قدرة الخالق" وفاصلة هذه الآية عظيمة جدا، ومن وجوه العظمة فيها اختيار كلمة (**تَعْقِلُونَ**)؛ لأن المطلوب من الإنسان الذي هذا معدنه، وهذا أوله، وهذا آخره، أن يفكر ويتعقل، وأن ينظر ويستدل؛ لأن آية الله ليست في الليل الذي جعله له ليسكن فيه، ولا في الأرض التي جعلها له قرارا فحسب، إنما في نفسه، والعجب في نفسه، وأن أوله وآخره تراب، وأن يد الله هي التي جعلت من هذا التراب إنسانا فإذا هو خصيم مبين، كل هذا محتاج إلى التعقل والتفكر ....ونلاحظ أمرا آخر، وهو أن فعل (**تَعْقِلُونَ**) متعد نزل منزلة اللازم؛ لأن المطلوب أن نكون ممن يعقل، يعني تتوافر فينا أهلية التعقل، ونلاحظ – أيضا- أن الواو في قوله: (**وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) ادخلت هذه الفاصلة في حيز لامات التعليل السابقة، يعني أن الله – سبحانه- خلقنا من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، إلى

---

(1) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير 240/24

(2) آل حم (غافر وفصلت) صـ252

آخر ما قال، وأخبرنا سبحانه بذلك من أجل أن نعقل، وكأن مسألة أن نعقل هي من علل وغايات الخلق، وأن من أهمل عقله كمن أهمل خلقه"[1]

الخاتمة

يمكن أن نضع بين يدي القارئ جملة من النتائج، استقاها البحث من طول استقراء ألفاظ القرآن الكريم، ومعالجة لنصوص التنزيل، فضلا عن استنطاق تراث الأقدمين، وكذلك التبحر في كتب المعاصرين، فكشف البحث عن عدة فوائد، يمكن أن أجملها فيما يلي:

- أن المنهج التطبيقي النظمي التكاملي في البحث البلاغي للآية القرآنية –الذي يعتمد على التحليل والبحث عن الأسرار البلاغية الكامنة وراء كل لفظة- أفضل المناهج، وأكثرها فائدة، وأقربها إلى نفس المتلقي، وهو المنهج الذي اعتمده معظم أئمة البلاغة وروادها كالإمام عبد القاهر الجرجاني وغيره.

(1) آل حم (غافر وفصلت) صـ252-253

- وردت آيات تخلق الجنين في العهد المكي– دون المدني – لترد على المنكرين والمشككين في إمكان البعث، فردت عليهم بالطريق العملي الذي لا يستطيع معه المكابرة والعناد.

- تنوع أطوار خلق الإنسان بين (نطفة – وعلقة – ومضغة...) وصياغتها بأسلوب بلاغي راق؛ لبيان القدرة على الخلق والترقي به من مرحلة إلى مرحلة وكذلك القدرة على التعبير البلاغي الحسن.

- إيثار مادة التراب في آيات تخلق الجنين وذلك لتذكير الإنسان بأصله البعيد حتى يكون مدعاة لنفي الكبر والغرور عنه.

- أكد البحث على أن حرف المهلة في آيات تخلق الجنين كثيرا ما يخرج عن معناه الحقيقي وهو الترتيب والتراخي إلى معن مجازي وهو الترتيب الرتبي أو الاستبعاد كما جاء بين مراحل التخلق.

- أن هناك فرقا بين الألفاظ (نطفة –مني – ماء) في آيات تخلق الجنين، فإذا ذكر النظم كلمة (نطفة) فيراد منها ما كان سببا للإنجاب والتخلق، أما إذا ذكر مني أو ماء) فيذكران حينما يراد بهما ما كان سببا للإنجاب أو ليس سببا فيه.

- ذكرت مراحل تخلق الجنين (نطفة – علقة – مضغة) بأوصافها المعروفة كالشكل والمقدار؛ وذلك لتقريب هذه الأشياء التي تغيب عن أبصار المخاطبين حتى تستقر في أذهانهم، ويتعرفوا على قدرة الخالق.

- كثرة ورود الفعل المضارع في آيات تخلق الجنين (نبين- نقر – نشاء –نخرجكم – تبلغوا – يتوفى – يرد – يعلم – ترى) وذلك لاستحضار صورة تلك المراحل العجيبة في أذهانهم.

- عبر النظم بحرف الظرفية (في) في قوله: (في ريب)؛ لبيان شدة انغماس المنكرين في هذا الريب، وإحاطته بهم من كل اتجاه.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أسماء شعبان، "دفع توهم التعارض في آيات خلق الإنسان بين الإعجاز العلمي والبلاغي"، بحث مستل من المؤتمر العلمي الدولي الثاني عام1431هـ، 2010م.
- الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الآلوسي،"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، ت، على عبدالباري عطية، ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، "الجامع الصحيح المسند من حديث الرسول – ﷺ – وسننه وأيامه المعروف بـ(صحيح البخاري)"، تحقيق، مصطفى ديب البغا، الناشر، دار ابن كثير اليمامة، بيروت، عام 1407هـ، 1987م.

- البقاعي، برهان الدين البقاعي،" نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1424هـ.

- ابن الأثير، أبوالفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، "المثل السائرفي أدب الكاتب والشاعر"، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، ط، المكتبة العصرية، بيروت، 1405هـ، 1995م.

- ابن عطية، أبومحمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، تحقيق، عبد السلام عبد الشافي، ط، دار الكتب العلمية، بيروت، عام 1413هـ، 1993م.

- ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، "معجم لسان العرب"، ط، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- أبوحيان، محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي،"تفسير البحر المحيط " ت، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ على محمد معوض وغيرهما، ط، دار الكتب العلمية، بيروت 1421،2001.

- أبوالسعود، محمد بن محمد العمادي أبوالسعود،" إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم"، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1421هـ.

- أبوشادي، عبد الحليم أبوشادي، "مقال البرهان التسلمي" مستل من مجلة اللغة العربية إيتاي البارود، مصر، العدد 16،عام 1420هـ،2002م.

- أبوموسى، محمد محمد أبوموسى، "آل حم (غافر، فصلت) دراسة في أسرار البيان" الناشر، مكتبة وهبة، القاهرة، 1420هـ، 2009م.

- أبوهلال العسكري، "الفروق اللغوية"، تحقيق، لجنة إحياء التراث العربي، ط، دار الآفاق الحديثة، الطبعة الخامسة،1405هـ، 1983م.

- حجازي، محمد محمود حجازي، "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم"، ط، دار الكتب الحديثة، القاهرة، عام 1390هـ، 1970م.

- الرازي، محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازي، "مفاتيح الغيب"، ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1420هـ، 2000م.

- الراغب الأصفهاني، الحسين بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، "مفردات ألفاظ القرآن"، ت، صفوان عدنان داودي، ط، دار القلم، بيروت، 1423.

- رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا " تفسير القرآن الكريم، المسمى بـ المنار"، ط، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1410هـ، 1990م .

- الزركشي، بدر الدين بن عبد الله بن بهادر الزركشي،" البرهان في علوم القرآن"تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط، دار إحياء التراث عيسى البابي 1376هـ،1975م.

- الزمخشري، جار الله أبوالقاسم محمود بن عمر الزمخشري، " أساس البلاغة" تحقيق ونشر، دار الفكر، بيروت، عام 1399هـ، 1979م.

- الزمخشري، جار الله أبوالقاسم محمود بن عمر الزمخشري، "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل "ط، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ، 1987م.

- الشريف الرضي، محمد بن موسى أبو الحسن الرضي العلوي الموسوي،" تلخيص البيان في مجازات القرآن"، ت،محمد عبد الغني حسن، ط،دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الثانية،1972م.

- الشهاب الخفاجي، أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي،" حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي المسماة (عناية القاضي وكفاية الراضي)، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- الطاهر بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير من التفسير"، ط، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1420هـ، 2000م.

- عبد الشافي، دكتور، السيد فتحي عبد الشافي، "الحقائق العلمية المعاصرة عن الإنسان والكون في القرآن الكريم"، مكتبة وهبه، القاهرة، 1428هـ، 2008م.

- الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، "ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل"، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1427،2006.

- القاسمي، جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، "تفسير محاسن التأويل"، ط، عيسى البابي الحلبي، 1376هـ.
- نعمت صدقي، "معجزة القرآن الكريم"، الناشر، دار عالم الكتب، القاهرة، بدون تاريخ.